
رواية
الكيلو ١٠١
الوجه... و القناع
سعيد سالم
www.kotobarabia.com

الكيلو ١٠١

الوجه.. والقناع

رواية

سعيد سالم

الإهداء:

أدمنت قرع الأبواب حتى أدميت كفي ولم يفتح لي أحد، ولما زال حجاب الغفلة عن قلبي تركت الأسباب ولجأت إلى المسبب..

فكتبت هذه الرواية إلى الله

الراوي

الحاج أحمد الجدار

أكتوبر ١٩٩٤

فهرس

مقدمة

لم أكن على معرفة بقدر عالم الملكوت؛ إذ لم أتنزه يوما من قبل في عجائبه أو أستبصر أنواره بقلبي، بل لم أكن قد فهمت أن جنته أعلى النعيم، وأن النظر إلى نور جلاله منتهى الكرامات، وأن رضاه غاية الدرجات وسخطه غاية الدركات.. وحين وقفت أمام مقام السيدة زينب رضي الله عنها قال لي الشيخ الذي أراه لأول مرة:

- لماذا تأخرت كثيرا؟.. ادخل إنها تريدك.

ودخلت تحفني أنوار ما أدركت مصدرها، وتصحبني زغاريد من خارج الصحن لم أطرب لسماع مثلها من قبل، وأبصرت بعيني أجنحة بيضاء ترفرف من حولي، واهتزت حلية المقام عند رأس السيدة فاطمة رضي الله عنها إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة عدة مرات فلم تتوقف عن الاهتزاز إلا بختام دعائي.

أصاب سائقي الذهول فسألني وقد اتسعت حدقتا عينيه حتى كادت جبهته أن تتلاشى:

- هل ترى ما أراه؟

أومأت إليه مشيرا بالصمت والسكون.

وعند الباب انكب على يدي يقبلها وقد غمـرت عينيـه الدموع وهو يقول:

- ادع لي يا سيدنا الشيخ، بارك الله فيك.

من يصدق؟

من كان يتصور ولو للحظة بارقة أنني كنت يوما أحـد طرفي هذا الحوار؟

- أنا مجنونة بحبك. أتوسل إليك لا تتركني.

- افهمي جيدا يا دليلة. أنا إنسان ملول، شديد الضجر، عدو للثبات على أي حال، وتقلبي لا حدود له.

- سأصبغ نفسي كل ليلة بصبغة مختلفة. لن أكون لـك يوما مثلما كنت في اليوم السابق له.

- كيف؟

- ستجدني يوما طبيبة ويوما خادمة ويوما أستاذة فـي الجامعة، وأعدك أنني سوف أسحق لـك الملـل والضـجر والعادة.

من يصدق أن هذا قد حدث؟

- اطمئن يا جدار يا بني.. سأعتقل لك هـذا المجـرم وانتزع أرضك منه.

- أنا لا يسعدني اعتقاله يا سيادة الوزير.. أريد فقط أن أسترد أرضي.

- كل يا أحمد.. ألا تعجبك ساندوتشات الفول؟

هؤلاء هم وزراؤنا، فالحمد لله على ما منح وما منع..

- هل تعرف أن عمك هو الذي علمني العسكرية الحقة؟

وبعيني رأسي رأيته بعد أسبوع يتناول العشاء مع اللص في أحد الفنادق الكبرى، وكانت ضحكاته تجلجل في أرجـاء المطعم الفاخر.

ومهما شطح الخيال وجمح، فإنه لن يبلغ مبلغ ما وقع:

- أنا الجنرال إيزاك شارون.

كان ينظر إلى وسطي باحثا في دهشة عن طبنجتي؛ إذ كان مكانها خاليا.

- وأنا أحمد الجدار.

- إنني أتعجب كيف قبلت لقائي في هذا الموقـع وأنـت أعزل من سلاحك الشخصي رغم كل ما بيننا من دماء؟

لم يكن يدري أن نهايته كانت مرهونة بأن يرفع يده ولو ليهش بها ذبابة حامت بالمصادفة التعسة حول وجهه.

- أردت أن أوضح لك الفارق بين قائد مصري وقائد إسرائيلي.

ابتلع جفاف ردى وجفاءه وقسوته واغتصب ابتسامة:

- إني سعيد بمعرفتك، ولسوف أتباهى بين أقراني بمعاركي معك.

فوجئت به يقدم لي بطاقة صغيرة.

- ما هذا؟

- عنوان ورقم تليفون منزلي في تل أبيب.

- وماذا أصنع بهما؟

- ربما فكرت في زيارتي يوما بعد أن يحل بيننا السلام.

- يبدو أنك رجل شديد التفاؤل، فحيائي يمنعني من وصفك بالجنون

ومن ذا الذي يقبل عقله قدرا من التناقض يحيل الثواب عقابا والعقاب ثوابا فينقلب العدل ظلما والحق افتراء؟

قال سيد بسيوني الذي يتاجر في ملابس المحجبات:

- أنا أعرف أنها أرضكم ولكني لن أتركها إلا على جثتي

- أتقبل هذا على نفسك وأولادك؟

رأيت في ابتسامته اصفرارا، وشممت من فمه عطنا وهو يهدد ساخرا:

- أنا وزوجتي لا ننجب، وأعلى ما في خيلك أركبه، فكل الرءوس الكبيرة في جيبي، وسرعان ما سوف تأتي صاغرا لتقبل ما أقرره.

***

انتهت المقدمة، ولكل مقدمة نهاية

أول المحبة وأوسطها وآخرها:

حقائقي مؤكدة موثقة، وعلى أولئك الذين يفرقون كثيـرا بين الخيال والحقيقة أن يتخلوا عن أوهامهم، فأي شيء فـي الحياة وفي هذا البلد يمكن أن يحدث، وأغلب ظني أنه ليست هناك قاعدة حاكمة من صنع البشر ينبغي أن يخضع لها سير الأحداث سواء قبل أن تقع أو أثناء وقوعها أو حتى بعـد أن تقع. وخير دليل أسوقه على صدق ما أقول هو حـالي فـي عالم الملك ومقامي في عالم الملكـوت. أتشـبث بعصـبي وأسناني بأرضي التي سرقت، وأتعلق بالروح والفؤاد بنـور الفيوضات العلوية والنفحات الربانية.. أتـوق إلـى وصـل يغنيني عن خلاياي الحية فأنجو بروحي من النتن والعفـن. أعلم أنني سواء استرددت أرضي أو فقدتها فمصـيري هـو القطنة والكفن، ولكني لا أكف ولا أستطيع أو أملك أن أكـف عن ارتياد قاعـات المحـاكم واسـتئجار كبـار المحـامين وصغارهم، إذ لا يختلف هؤلاء عن أولئك مثقـال ذرة فـي تعطشهم الجهنمي إلى أوراق البنكنوت ونهمهم الجنوني إليها بالحق أو الباطل.

حرقوا أعصابي والمحبة أولها حرق. أغرقـوني فـي ضلالهم والمحبة أوسطها غـرق. قتلـوني فـي سـرائرهم والمحبة آخرها قتل.. فبحق إبراهيم يا عاشقتي وبحق موسي يا وزيري وبحق عيسى يا سارقي، إنني لم أعـد أسـمعكم وأبصركم. وجودكم في غفلتي وعدمكم في انعتاقي من أسـر نفسي، وذكر المحبة يا مولاي أسكرني.. فهل رأيـت محبـا غير سكران؟

قضيتي يا مولاي قضية محبة، فحين ضـاعت الأرض أدمنت الصبر وأدمنه معي إخـواني فـي الجـيش والبيـت والشارع والشرايين والنخاع وتحت الجلد. كانوا يتجرعـون جميعا مرارة الهزيمة في ألم بليغ، ولكني لم أكن مثلهم، فمـا حدث عام النكسة أصابني بداء العزم وأدخلني باب المجاهدة، ففهمت أنها إشارة النصر المرتقب، وأعددت جسدي ليكـون فداء للمهمة المقدسة.

كنت على يقين من جدارتنا بالنكسة إذ نقضنا قانون الله في أرضه فجعلنا عالي الأمور سافلها، حتى أننـي عرفـت كثيرا من البسطاء كانوا سعداء بما حدث لأنهـم فـي كـل الأحوال مغلوبين على أمرهم، أما في حال الهزيمة فقد شمل

الانكسار الجميع.. الضباط والحاكم والزبانية والأثرياء والأرض الضائعة.. والبسطاء.

أدكت هذا يوم أن شيعت جنازة عبد الناصر قبل تخرجي في الكلية الحربية بيومين.. طوفان من البشر غارقين في دموعهم، كل يبكي على نفسه قبل أن يبكي على أرضه أو على عبد الناصر.

***

الثغرة:

بدأت سرقة الأرض بحلول جماعة من الأعراب حطوا رحالهم عليها وشرعوا في بناء سور حول جزء كبير منهـا، وكان أفراد أسرتي يغطون في نـوم عميـق فـي بيـوتهم الأسمنتية التي لا تعرف الخضرة والنماء، وتفزع العصـافير من التحليق فوق أبراجها العالية.. كان ذلـك فـي حـوالي الساعة العاشرة من مساء يوم ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ حين تمكنت قوة صغيرة للعدو تتكون من سبع دبابات أن تصـل متسـللة إلى غرب القناة باستغلال ملتقاها بالبحيرات المرة، فاسـتهان بها أولو الأمر ولم يبلغوا القيادة العامة بما حدث في حينـه، بل إن السادات نفسه لم يعلم بها ألا قبل ساعات قلائـل مـن إلقائه خطاب النصر في مجلس الشعب يوم ١٦ أكتوبر.. وقد تحولت الدبابات السبع فيما بعد إلى سـبعمائة حتـى وقـع المحظور.

أما أعراب غرب الإسكندرية فهم صنف غريـب مـن البشر تتركز سيماهم على عيونهم.

في خلال ساعات سيطروا بسهولة على الأرض بقيـادة زعيمهم حسن الجاويط الذي استقر بخيمته فـي مركزهـا.

رأسه كالكرة تماما، وعيناه ضيقتان منطفئتان تدوران حـول بؤبؤيهما كما يدور جهاز رادار محموم باحثا عن هدفه.

كلما تذكرت الأرض يا مولاي فاضت فـي خـاطري دموع غزيرة.. دموع مشيعي عبد الناصر، ودمـوع أهـالي شهداء النكسة والعبور، ودموعي حين ظلمت وقهـرت فـي عملي، ودموعي حين بكيت لأول مرة في حياتي بمقام السيدة نفيسة رضي الله عنها، فأوقن أنك ما خلقتني إلا لكي أدافـع عن الأرض وأحميها ممن يفكر في اغتصابها، يهوديا كان أو مسلما أو حتى من لا دين له.

صرخت أمي:

- لا يمكن أن يكون حسن الجاويط.

- لماذا؟

- لأنه السمسار الذي أتى إلينا بسيد بسيوني منذ عـدة أشهر لشراء الأرض.

- لقد باعنا له، وهو الآن يحول الخمية إلى بنـاء مـن الطوب.

- الجبان.

معلوماتي المكتسبة عن طباع الجنس البشري ينحصـر مجالها في مصر، فظروف حياتي لم تسمح لي بأسفار طويلة أو قصيرة أتعرف فيها، - بمواجهة العيون – علـى طبـاع أجناس أخرى غير المصرين، فبالعين قبل أية حاسة أخـرى أستطيع بما سخره لي الله من قدرة أن أمسك بتلابيب الفكرة التي نشأت في عقل من أنظر إليه، وأعرف كيف تسللت إليه وأتوصل إلى دوافعه في اعتناقها وإلى دوافعها فـي التسـلط عليه، خاصة لو كان في الأمر – والعياذ بالله – شر، فهـذا تخصصي وتلك موهبتي وأحمد الله على مـا منحنـي ومـا منعني، فدائما ما أبرأ من حولي وقوتي إلى حولـه وقوتـه؛ اتعاظا بتجربة قارون من جهة، وتطبيقا معاصـرا لنظريـة رأس الذئب الطائر من جهة أخرى.

أستطيع إذن – بلا تفاخر – أن أدعي أنني متخصـص في فهم النذالة بأصنافها كافة، ودءوب في تعقب مصـادرها منذ لحظة الكشف وحتى موقع المنشأ.

ولما كان الأمر كذلك فقد هالني ما فعله حسن الجاويط، وكان توصيفي المبدئي لفعلته هو مزيج من الخيانة والجـبن والحقد وانعدام الشرف والكرامة، وكأنه قـد فـتح لجـانبي

الرومانسي بابا للفحص والتأمل يدعو في البداية إلى التساؤل البديهي: "لماذا يفكر إنسان في اغتصاب حق إنسان غيره؟".. الأمر الذي يقود إلى تكرار السؤال نفسـه بعـد توصـيف المغتصب بأنه يعيش من خير المغتصـب مبـديا القناعـة والرضا.. ويجر التساؤل وراءه ملايين من التساؤلات..

أما باب الارتطام المادي بالواقع فقد جعلنـي أصـرخ متوعدا:

- سأمزقه إربا.

- إياك أن تقترب من هؤلاء البلطجية.

- ونتركهم يغتصبون أرضنا؟

- بالقانون سنحصل على حقنا ونطردهم في أسرع وقت بإذن الله.

- أشك في ذلك.

وبذل كيسنجر جهدا خارقا لكي يعطل صـدور قـرار وقف إطلاق النار حتى يعطي الفرصة لإسـرائيل أن تحتـل السويس أو الإسماعيلية أو بورسعيد، أو أن تقطـع الطريـق إلى القاهرة وتضعها تحت تهديد مدافعها ودباباتها. بل إنه لـم يخجـل مـن ذكـر سـعادته بـاليهود – فـي مذكراتـه

المنشورة – حين نجحوا في الالتفاف حول قواتنا من خـلال الثغرة.

وقلت لقائد وحدتي الجديد الذي نقل إلينـا بعـد وقـف إطلاق النار:

- اعطني فرصة من الوقت حتى أسيطر على الموقـف ثم أعود إلى وحدتي على الفور.

قال في رجولة أسرتني:

- أيكفيك خمسة أيام إجازة؟

- بارك الله فيك يا فندم.

في طريقي إلى أرضي المهددة كنت على يقـين مـن النصر، فمن الطبيعي بعد أن أديت واجبي على أروع وجـه أن يساندني الجيش والبوليس والقضاء والشعب في الحصول على حقي المغتصب.

آه من غرور عقلي وسذاجته يا مولاي، كم أعمتني عنك غفلتي فاغفر لي ضعفي وقلة حيلتي. فكرت فـي الأنـواط والنياشين والتصفيق وكلمات الإعجـاب وآيـات الانبهـار. فكرت في دبابات العدو التي طارت فـي الجـو بصـواريخ جنودي. فكرت في زهوي وخيلائي وأنا استعرض صـفوف

الأسرى من الصهاينة وقد جمعهم جنودي مثلما يجمع فـلاح ثمار حقله..

كيف لم أفكر بك حينذاك، كيف لم ترد إلـى خـاطري وأنت منقذي وحماي؟

***

جنود إبليس:

قيل إن رجلا من بني إسرائيل صام سبعين سنة يفطـر في كل سنة سبعة أيام، فسأل الله تعالى أن يريه كيف يغـوي الشيطان الناس.. فلما طال عليه ذلك ولم يجب قال:

لو اطلعت على خطيئتي وذنبي بيني وبين ربـي لكـان خيرا لي من هذا الأمر الذي طلبته.. فأرسل الله إليـه ملكـا فقال له:

- إن كلامك هذا الذي تكلمت به أحب إلي مما مضـى من عبادتك، وقد فتح الله بصرك فانظر.

فنظر فإذا جنود إبليس قد أحاطت بالأرض، وليس أحـد من الناس إلا والشياطين حوله كالذئاب.

***

الأرض:

سألت دليلة وكانت في ذلك اليوم أستاذة فـي الجامعـة تدرس بكلية العلوم:

- ما الأرض يا دليلة؟

- الأرض يا حبيبي تراب يتكون من نفـس العناصـر التي تكون منها جسم الإنسان.

- وما فائدة تملكها يا دكتورة؟

انتظرت أن تبرر لـي ملكيـة الأرض – كتبريـري – بتعميرها، فتلك سنة الحياة، لكنها شردت طويلا وقالت وكأنها تحدث نفسها:

- إنني دائما ما أتساءل ما الفائدة أن أمتلك عدة أمتـار مربعة على سطح الكرة الأرضية ملكية موقوتـة، أمضـي عمري في نزاع مع الغير للاحتفاظ – الموقوت- بهـا، ثـم أموت تاركة إياها للمجهول.. لماذا يتعـاملون مـع التـراب وكأنه شرف وعرض؟ إنني لم أستوعب يوما كيف يقتل فلاح جاره لأن جاموسته وطئت أرضه، أو كيف يغزو جيش دولة أرضا مجاورة يسكنها قوم آخـرون ليقتطـع منهـا جـزءا لقومه؟!.

قلت لها:

- لكن هناك من يعمر الأرض ولا يمتلكها.

- هؤلاء من لا مال لهم ولا جاه ولا كلمة تسـمع ولا أمرا لا يرد.

في تلك الليلة لم أشتهها ونام كل منا في غرفة.

الأرض أرضك يا مولاي. أنزلتني إليها بالحق وسـوف تنتزعني منها وتؤويني في ترابها ثم تبعثني بالحق فاغفر لي تشبثي بها والقتال لأجلها.

تلك منحتك.. هديتك الغاليـة، فكيـف أبخسـها حقهـا وأتهاون في الحفاظ عليها؟

إني أعاهدك أن أمنح ريعها لوجهك الكريم لو أعـدتها لي، وأن أسخر نصيبي في خدمة أحبائك الفقراء..

لقد خرجت من مجرى البول مرتين فأعوذ بك يا مولاي من نفخة الكبرياء، وإن مت دونها فكم أتوق لأن أنضم إلـى ركب الشهداء.

ولما رجعت إلى كتب العلوم عرفت أن الأرض تتكـون من اليابس والماء وأن اليابس يحتل ثلـث مسـاحة الأرض كلها، وأن ثلث هذا اليابس إما شديد البرودة أو شديد الجفاف

بحيث تتعذر فيه حياة الآدميين ابتداءا مـن حسـن الجـاويط ومرورا بتولستوي وسلمان الجربوع والراقصـة المشـهورة سهير عبده وانتهاء بشخصي.

لم أفد كثيرا من علمي بأن المحيطات الكبرى تفصل بين القارات وأن هناك سلاسل ضخمة مـن الجبـال العملاقـة والصحاري الشاسعة تشكل هذا اليابس، فيابسي ينحصر فـي بقعتين فقط إحداهما في ميدان شهد قتالا ضاريا بيني وبـين جنس بشري آخر على قطعة من اليـابس، والأخـرى فـي العامرية وتخص أسرتي. في اليابس الأول استهنت بحيـاتي فداء لفكرة، أما في اليابس الثاني فكانت صدمة العمر.

الصدمة:

ما إن وصلت إلى الإسكندرية حتى توجهت إلى الميناء لأعبر عن عرفاني بجميل قائدي الجديد، فـأنهي لـه أوراق عربته بالجمارك حسبما طلب مني فـي اللحظـة الأخيـرة لمغادرتي الموقع.

وقفت أرقب حركة السفن، ونسمات الخريـف الشـجية تهفهف من حولي فتبعث في النفس إحساسا غامضـا بنشـوة

الحرية، وتثير فيها كوامن الوجد ولوعة فراق الأحبة، فأتأمل حكمة الخالق في تقلب الفصول والأحوال.

ابتسم الموظف ابتسامة لم أفهم مغزاها حين قـال لـي بهدوء:

- ثلاثة آلاف جنيه.

- نعم؟

- كما سمعت تماما.

- يقول صاحبها إن أوراقها تامة.

- لكن رسومها غير مدفوعة.

سارعت إلى التليفون مدفوعا بنواياي الحسنة. بصعوبة متناهية نجح الاتصال، جاءني صوته مؤنبا:

- كنت أظنك أذكى من هذا يا جدار.

- لست أفهم.

- ما دمت لم تفهم فعد فورا إلى وحدتك.

- لكني لم أذهب بعد إلى أرضي.

- لو لم تعد فورا سأعتبرك غائبا عن الوحدة بدون إذن.

كان موقعي قبل وقف إطلاق النار عنـد الكيلـو ١٠١، ومازال موقع أرضـي بالعامريـة عنـد الكيلـو ٢٨ مـن

الإسكندرية محتلا حتى الآن رغم أن إسرائيل عقدت اتفاقيات سلام مع الفلسطينيين والسـوريين والأردنيـين واللبنـانيين. حررت موقعي الأول عام ١٩٧٣ أما موقعي الثاني فتحتلـه الآن عربات نقل وبلـدوزرات سـيد بسـيوني وجراراتـه الزارعية التي أصبح من أشهر تجارها بعد أن نفض يده عن تجارة ملابس المحجبات وتركها لواحد من أقاربه.. وكانـت جولدا مائير قد استعرضت عضلاتها الأنثوية فـي الزيتيـة وتحدثت إلى صحفيي العالم من غرب القنـاة ومـن خلـف القوات المصرية، وقال السادات ساخرا: إنها مسرحية هزلية وإن الثغرة يمكن أن تصفى خلال ساعات.

وقلت لنفسي بعد أن أنذرني قائدي: إنني لن أعود إلـى وحدتي قبل تحرير أرضي، إذ تبين لي أننـي حـين كنـت أعرض صدري لرصاص الأعداء في اليـابس الأول، كـان ظهري في اليابس الثاني عرضه للطعن بخنجر مسموم تمسك به يد مصرية تأكل من طعام الأرض التي أقاتل لأسـتردها، وكان لقائي الأول على غير موعد بالجور والعبث.. أحمدك يا مولاي أن العدوان على أرض العامرية لم يبدأ إلا عنـدما أوشكت المعارك الحربية على الانتهاء، وإلا لمـا اسـتطعت

بأي حال أن أخوض بروح المحبة فيما خضت من أهوال فأنا أكره الجبن والنفاق ولا يمكنني أن أنتمي لوطن لا ينتمي إلي هو الآخر بنفس القدر من الولاء..

لم أكن أتصور أنني أموت في كل لحظة لكـي أحمـي عرض رجل من ديني ووطني يسرق أرضي ولا يسأله أحد ماذا تفعل بالرجل الذي يحميك؟.. لهذا حسبت أننـي سـوف أنجح خلال أيام قلائل في إقصاء حسن الجاويط وعصـابته من الأرض بكل الوسائل الممكنة، وحسبت أيضا أن أيـادي العون سوف تتنافس على مساندتي ومؤازرتي.

لكني لم أحسب أبدا أن هذا لن يحدث حتى بعد مـرور عشرين عاما على تلك الواقعة.

ولم أكن أتصور يا مولاي أن يبتزني قائـدي بعـد أن سكت صوت المدافع ووارى التـراب عشـرات الأجسـاد الطاهرة من إخواني المقاتلين بلا تفرقة. أين هذا القزم مـن قائدي العملاق العقيد نشأت؟

كان جرحي عميقا، فالضابط المحترم- منذ رآني أقـيم ولائم الإفطار في رمضان لجنود الكتيبة على نفقتي - أدرك أن أسرتي ميسورة الحال وأن الآلاف الثلاثة لن تؤثر علـي

في قليل أو كثير. ليته طلبها مني في مواجهـة شـجاعة، أو ادعى أنه يقترضها وأضمر في نفسه ألا يردها.. ليته فعل أي شيء إلا أن يستهين بكرامتي مثلما فعل سيد بسيوني الغيور على النساء المسلمات والذي باع له كائن اسمه حسن الجاويط أرض أسرتي بتراب الفلوس.

ولشدة انهماكي في التفكير وغوصي بتركيز عميق إلى أغوار فكرة الاغتصاب سواء من جانب الجاويط كأداة أو من جانب البسيوني كقوة، خيل إلي أن للشر فائدة، فلو لم يكـن الأمر كذلك لما أوجدته يا مولاي.. عجيبة!

ربما كانت هناك فائدة للشر كالسعي إلى الخير، وربمـا كانت هناك فائدة للباطل كالبحث عن الحق.. ولكـن لمـاذا جعلت من أرضي ميدانا للاختبار، وأرضك واسعة وكـونكم عظيم؟.. قد تكون رسالة من جلالتك على أن أفك شـفراتها وأمتثل لمضمونها، أما فيما يخص الأطراف الأخـرى فمـن المؤكد أن للاغتصاب لذة لا تقاوم وشهوة لا تدانيها شـهوة، فهم ينظرون إلى الحياة كوليمة دسمة جاءت مثلمـا سـترفع فجأة وعلى غير انتظار، وأكثر الفائزين بها – عندهم – هـم أولئك العاشقون للاغتصاب والقادرون عليه.

الجاهلية

ارتدت دليلة مريلة بيضاء ناصعة ووضعت على رأسها شريطا أحمر. كانت في ذلك اليوم خادمة. قلت لها متسائلا:

- هل تعلمين ماذا فعل سمسار الصهاينة بأرضنا؟

أجابت في ميوعة مستترة أثارت في الرغبة.

- أنا لا أفهم يا سيدي في السياسة.

ذكرتني بأبي الراحل فجميع أفراد أسرتي لم تكن تناديه إلا بهذا اللقب:"سيدي"

- فيم تفهمين إذن؟

- أفهم معنى كيسنجر إن كـان هـو السمسـار الـذي تقصده.

نسيت أنها خادمة وقالت: إن الاسم يعني فـي ترجمتـه (البواس)

قلت لها مدعيا الغضب:

- اخلعي المريلة يا بنت الكلب.

- لماذا يا حبيبي؟.

- لأن الخادمة لا تعرف الإنجليزية.

وانفجرنا في الضحك...

في تلك الليلة أتقنت الملعونة تقمص شخصية الخادمـة بروحها ولفظها وسلوكها. لقد هداها ذكاؤها إلـى شخصـية خادمة غير مبتذلة لكنها شديدة الخبث والدهاء. تخفي أنوثتها عن سيدها ثم تظهرها. تبدي ذكاءها ثم تخفيه. تكشف عـن خوفها من العار وتستر جرأتها واندفاعها وراء هدفها الخفي لاقتناص الفريسة الثمينة.

ما أتعسني يا مولاي حين كنت يائسا من رحمتك.. وما أخجلني أمامك الآن وأنا أسرد فضائح سترتها بكرمك عـن العباد ولم تفضحني في جاهليتي. أضاء لي الشيطان طريـق الغفلة بناره التي لم تلبث أن خبت جذوتها فتركنـي ضـالا أتخبط في ظلام الجهل، وعميت عن طريق الحـق المضـاء بنورك القدسي الأزلي الأبدي الذي لا نهاية له. إن ذريعتـي التي أرفعها في خضوع أمام جلالتك هـي المثـل أضـربه لغيري من الناس حتى لا يقنطوا من رحمتـك ولـك المثـل الأعلى. أنا نفسي لم أكن أتصور أنني سوف أهتدي يوما إلى نورك، فاسمح لي أن أكون جنديا من جنودك يحمل مشـعلا يضيء طريق الهدى إلى عبادك المسـاكين الـذين أعمـتهم الغفلة عن الحق. إن أحدا منهم لم يكن يعلم حينئذ أن كيسنجر

قد بعث من موسكو في صباح الثاني والعشرين من أكتـوبر ١٩٧٣برسالة رقيقة إلى جولدا مائير يقول فيها:

"سيدتي رئيسة الوزراء.. إننا نعتقد أن إنجازا كبيرا قـد تحقق لكم ولنا، وهو إنجاز يؤيد الشجاعة القتاليـة لقـواتكم ويصون منجزاتها، فقد توصلت إلى مشروع قـرار لوقـف إطلاق النار مع القيادة السوفيتية. ذلك القرار يترك قواتكم في المواقع التي وصلت إليها غرب القناة، كما لا يحـوي أيـة أشارة من أي نوع إلى كلمة الانسحاب"

***

الشرطة

قال لي مأمور القسم:

- ستقوم لجنة بمعاينة الأرض غدا.

ولنا بالأرض فيلا مهجورة منذ عشرات السنين تؤكـد بالمستندات أسبقية حيازتنا للأرض. لم يقترب الجاويط منهـا وإنما شرع في الالتفاف من حولها بسوره الفـاجر وذكائـه الشيطاني.

سألت الضابط في دهشة:

- ولماذا لا تتم المعاينة على الفور؟

أجاب في اقتضاب وغرور:

- هذا عملنا ونحن أدرى به.

ما إن انتهى من بناء السور – في أربعة أيام – حتى أرسل الضابط لجنة المعاينة، فأثبتت وجود حسن الجاويط ورجاله في المنطقة المسورة بوضع اليد. كان من الضروري في مثل هذا الموقف أن تتحول المشكلة إلى النيابة بعد أن أصبح السمسار طرفا ينازعنا في الملكية.. أما البوليس فلم يعلن قرار وقف إطلاق النار إلا بعد أن تمكن الجيش الإسرائيلي من إحكام خطة الثغرة وما ترتب عليها من تدمير لصواريخ الدفاع الجوي المصري ووقوع خلاف بين قادتنا حول كيفية القضاء عليها، ثم انفراد السادات بقرار قبول وقف إطلاق النار دون استشارة شريكه السوري.. وأما أفراد أسرتي فإنهم متفرقون في مدن عديدة بحكم طبائع أعمالهم وإن كانت قلوبهم المتحابة تلتقي في المناسبات بمنزل الأم التي حملت على كاهلها وحدها عبء أراضي العامرية وعزبة كوم حمادة وبعض العقارات المتناثرة هنا وهناك.

كيسنجر يهودي ويحاربنا بحقده الأسود الملتهب فيـ دعم إسرائيل بجسر جوي لا يهدأ... هذا شيء مفهوم. أما أنت يا حسن يا جاويط فمصري مسلم مثلي تماما، وأنت يا سيد يـا بسيوني يا حامي حمى الإسلام.. وأنت يا قائـد وحـدتي... وأنت يا ضابط البوليس، فهل لأحدكم من ماله إلا مـا أكـل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأمضى؟.. مـا أحقـره مـن تحالف وما أحقركم من حلفاء. لو لم أكن على جاهليتي يومئذ لحذرتكم في حينه بأنه ما أعز الدرهم أحد إلا أذله الله، وأنـه لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإنكم إن تنعمتم في البطن فالحمار أكثر أكـلا مـنكم، وإن تنعمتم في الوقاع فالخنزير أعلى رتبة منكم.

مكنتني النيابة – على الأوراق – من أراضـي بـالقوة الجبرية، وحكمت بهدم سور اللصوص وكان من الطبيعـي حسب تصوري أن تنفض المسألة خلال أيام.

***

السماسرة الثلاثة

حين بدأت أفكر في العودة إلى وحدتي صـورت لـي مخيلتي فجأة ذلك التشابه الغريب في ملامح الوجـوه بـين السماسرة الثلاثة كيسنجر البواس وحسن الجـاويط وقائـدي الجديد.. تعجبت للأنوف الثلاثة المدببة المرتفعة على الوجه فوق حد الاعتدال، والشفاه الدقيقة الحادة القاسـية، والعيـون التي لا تعرف السكينة فتدور حول نفسها بسـرعة البـرق.. حتى تحركات الأجساد متشابهة في خطواتها وميلها واندفاعها واعتدالها، فسبحانك يا مولاي فيما خلقت.

قال لي القائد:

- استعد للمحاكمة.

- هل أنت واثق أنك تتكلم بجدية؟

- ستعرف بعد قليل.

لم أدعه لقليل أو كثير، إذ أغلقت باب حجرته من خلفي وزأرت في وجهه:

- أنت إنسان حقير.

- هل جننت يا جدار؟ تسب قائدك.. وفي مكتبه؟

اقتربت منه مهددا دون النية لتجاوز مرحلـة الحـوار، لكنه فزع من اقترابي بشدة، حتى أنه قفز من مكتبه فتعثرت قدمه وسقط على الأرض بعد أن ارتطم رأسه بحافة المكتب فاندفعت الدماء من رأسه كالنافورة.

سارعت بفتح الباب، بينما اندفع مهرولا إلـى الخـارج مرددا في تخاذل:

أتضربني في مكتبي يا جدار؟

أمام هذه الخسة وقفت حائرا.. ما أسـرع أن تمضـي الذكريات الحلوة وكأنها السراب رغم ما تفوح به ذكراها من عبق المحبة والشهامة وفرحة الرجال بانصهارهم جميعا في بوتقة القتال.

كان يوم ٢٢ أكتوبر يوما حزينا عن جميع أفراد الكتيبة وأنا على رأسهم. وقفنا صفوفا نودع العقيد نشأت الذي كـان عليه أن يتوجه إلى وحدة أخرى ويرحل عنا وقد سرق فـي خطوته قلوبنا وفي بسمته أعظم أيام عمرنا.

قلت للقائد الذي لم يكن يعرف عن القيادة غير اسمها:

لا يليق بكرامتك وعسكريتك أن يظن الجنود أن ضابطا صغيرا يعمل تحت قيادتك قد شج رأسك. سارع بالدخول إلى

مكتبك لنتفاهم، وثق أن مسألة الثلاثة آلاف جنيه لن يعلمهـا أحد سوانا.

أدرك بسوء ظنه أن مساومتي تحمل في طياتها تهديـدا بفضح سره فانصاع لرأيي في جبن وتخاذل، لكنه كان خائفا أن أضربه. قلت له إنني سأؤكد للجميع حقيقة ما حدث وهـو أنك انزلقت بالمصادفة فجرحت. قال كطفل غبي عنيد:

- وهل تعتقد أنهم سيصدقون؟
- أنا كفيل بذلك.
- اسمع يا جدار. هذه الكتيبة لن تسعنا معا.
- والحل؟

اطلب إجازة كما شئت. المهم أن تبعد عني.

ومن العجيب أن الجنود لم يصدقوا.. بل ظلوا يتهامسون فيما بينهم قائلين بسعادة:

الجدار ضرب القائد.

***

التكريم

كانت دليلة تعمل بالصحافة يومذاك. وضـعت نظـارة قراءة على أنفها الدقيق وراحت تقرأ لي أخبار تكريم الفنانين والفنانات في حفل يحضـره رئـيس الجمهوريـة، حيـث يصافحهم فردا فردا ويسلمهم الأوسمة والنياشين والمكافـآت المالية. وتسألني بنبرة حيادية مثيرة:

- ومتى يقيمون حفلات تكريم مماثلة لضـباط وجنـود أكتوبر؟

فأطلب منها أن تكف عن القراءة والحـديث فـي هـذا الموضوع الاستفزازي، لكنها تصر على إثارتي فتقـرأ لـي خبرا عن قرار رئيس الوزراء بسفر الفنانة نادية فهمي إلـى لندن للعلاج على نفقة الدولة. أنتفض كمن لدغتـه عقـرب، وأضع يدي على أنفي وفمي خشية صدور صوت قبيح. فهذه الفنانة دعتني يوما إلى فيلتها بإحدى ضواحي القاهرة بعد أن تعارفنا في حفل راق. في تلك الليلة تنافسنا في سباق جنوني يثبت فيه كل منا للآخر أنه لن يكون البادئ بالترنح والسقوط مهما أفرط في الشراب. والحق أننا تعادلنا في المسابقة حتى

أن أحدنا لم يتعرف على جسد الآخر إلا فـي ظهـر اليـوم التالي.. اغفر لي يا مولاي انفلاتي القديم عن معيتك.

وجدت أن هناك اتساقا مذهلا بين منطق تكـريم ناديـة فهمي بإرسالها للعلاج في الخارج على نفقة الدولة ومنطـق الصحافي الكبير الذي صرح في احتفالات أكتوبر ١٩٩٤ بأن الرئيس مبارك هو القائد الذي ظلت مصر تنتظره لمدة سـت سنوات ما بين نكسة يونيو ١٩٦٧ وانتصار أكتوبر العظـيم عام ١٩٧٣، وأن مصر ظلت طوال هذه السـنوات الكئيبـة تترقب في كل يوم ظهور القائد وتتطلع إلى البطل الذي يطلق شرارة العبور ويفتح آفاق النصر ويمحو الهزيمة.. أمـا أن هناك كائنا بشريا اسمه أنور السادات قد كان يوما على قيـد الحياة حين اتخذ قرار العبور وكان قائده الحقيقي فذلك أمر لا يتسق مع المنطقين السابقين، وبالتالي يجوز نسيانه أو تناسيه والله أعلم، وأما أن هناك رجالا آخرين قد ولـدتهم أمهـاتهم يوما كالمشير أحمد إسماعيل والفريق سعد الشاذلي والمشـير عبد الغني الجمسي والمشير محمد على فهمي واللواء نبيـل شكري وغيرهم فذلك أمر ليس بذي بال، وإلا ضاع المنطق وأصبح من السفاهة أن تصرف ملايـين الجنيهـات علـى

الاحتفالات الباذخة التي يتبارى فيها المطربون والمطربـات والراقصون والراقصات في الإشادة بمآثر الـرئيس بـنفس درجة الإتقان التـي أشـادوا فيهـا مـن قبـل بالسـادات وعبد الناصر.. فمن ذا الذي يلوم حور محب حين محا اسـم توت عنخ آمون من النقوش التي كتبت في عهده وفقأ عينيه على جدران المعابد وقطع رءوس تماثليه حتى يبعـث بـلا رقبة؟....

ومن ذا الذي يلوم هواة الاغتصـاب والنصـب علـى استباحة أرضي ودمي؟

صاحت دليلة تفيقني من شرودي:

- ماذا دهاك؟.. هل هي قريبتك؟

قلت لها متجاهلا لهفتها:

- لماذا لا نلعب اليوم دور المثقفين؟

- أنا جاهزة، ولكن كيف تريد أن نلعبه؟

أحضرت غليونا ونظارة قـراءة ذات سلسـلة فضـية ومجموعة من الكتب وجلست أمامها مهموما مغموما مكـدرا أدخن بشراهة، فسألتني:

- ما الذي يشغلك؟

قلت متصنعا الوقار الشديد:

إن مطالعة النفس الناطقة في ذاتها الروحانية تنعكس على عذابات الوجود اللاإنساني المتشوق إلى بهاليل السبهللة في طواجن الكوارع المسبكة بالثوم والصلصة.. سليم؟

قالت ببرود تام وبلا أدنى انفعال:

- لا شك في هذا يا صديقي.

ولكن الكارثة الحقيقية تكمن في أن كثيرا من الناس سفلة وطماعون وكذابون ومنافقون ويأكلون مال النبي في لمح البصر على الموائد كافة.. سليم؟

بصراحة.. أنا لا أفهم هذا الكلام.

فكيف فهمت ما قبله يا بنت الأبالسة؟

***

أبي

في العشرين من عمره رأى في المنام نورا ساطعا مبهرا بينما كان يقف عند مفترق طرق عديدة. اتجه من فوره إلى النور وسأله:

أأنت من ضللتك الغيامة.. أأنـت مـن سـلمت عليـك الغزالة؟

فتراجع وجه النور باسما وقد أومأ بالتأييـد. قـال لـه بفرحة غامرة:

إذن فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حينئذ أشار النور لأبي إلى طريق معين ليسير فيه مـن دون الطرق الأخرى. وما إن خطا به خطواته الأولى حتـى نزلت من السماء مراكب على الترعة التي راحـت تفـيض بمائها على الطرق الأخرى فغمرتها ولم يبـق إلا الطريـق المستقيم الحاد الذي يسير فيه. ويوم أن لقي ربه مالت تكعيبة العنب وسقطت ثمار التين الشوكي عـن أشـجارها دون أن يلمسها أحد.

***

الهاتف

كثيرا ما أقول لنفسي أنني أستحق ما أنا فيه من كـرب وابتلاء وشعور بالظلم والذنب والندم.. فقد جـاءني الهـاتف

ثلاث مرات، واستمعت إليه جيدا وانتبهت إلى تحذيره بكل ما وهبني الله من حواس.

جاء في المرة الأولى حين تكلمت إلى الله بعد أن كتب لي عمرا جديدا وطلقات الرصاص تئز حول وجهي وصدري وتحت قدمي دون أن تلمسني.

وعاهدتك يا مولاي أن أجيء إليك.. ولكني نسيت.

ثم جاءني في المرة الثانية حين نجوت من ابتلاء الأعرابية الفاتنة التي راودتني عن نفسي، وفي أيام رمضان المباركة وعلى الأراضي الطاهرة المقدسة.

وعاهدتك يا مولاي على أن أجيء إليك.. ولكني نسيت.

ثم جاءني في المرة الثالثة حين عدت من زيارتي لأهل البيت وجلست وحدي متأملا في ذهول ما أظهرته لي من كرامات.

في هذه المرة خطوت إليك بل عدوت بأقصى ما استطعت من سرعة.. وفتحت لي أبوابك فعشت في نعيم.. نعيم أبكيه اليوم حرقة وألما على ضياعه لأني استسهلته فلم أقدره حق قدره ولم أدرك أنه الابتلاء العظيم، فانخرطت في

دنيا يحكمها قضاة وشرطة وموظفون وسماسـرة.. فنسـيت مرة ثالثة يا مولاي.

أستحلفك بحبيبك محمد أن تعيد لي يوما واحدا من أيـام النعيم.. أيام العزلة والصفاء والاستغناء والـدرجات العلـى ونفحات النور ونشوة الوصل.

الطليقة

- أعدني إلى عصمتك وسوف أكون إنسانة أخرى.
- كنت أتمنى يا سمية.
- أعدك بالطاعة العمياء والكف عن الغيرة المجنونة.
- ليتني أستطيع. لقد خرج الأمر من يدي.
- ألا تعطني ولو فرصة واحدة لأجل ابنتنا راوية؟

وأبتسم في ثقة العارف دون غرور ولا أقول شيئا لأنها لن تفهم.. إني أعاود السير إليك يا مـولاي. أحـاول جهـد طاقتي أن أكتسح في طريقي كل مسرة تشغلني عن ذكرك.. أنفض حتى عن يدي ما قد يعلق بهما من أمل قصير الأجل.

إنني ما هجرت النساء إلا حبا فيك.. وما تركت الجيش إلا التجاء إليك.. وما نذرت نفسي للجهاد من أجـل الأرض

إلا إرضاء لك.. فامنن علي، بنعمة الذكر وارحمني يا مولاي من آفة النسيان.

***

الدنس

عدت إلى أرضي لأواجه العدوان الجديد. من لا يملـك أعطى من لا يستحق، تاجروا في أرضي بالباطل. وزعـوا الأوراق فيما بينهم من يد إلى يد ومن عام إلى عـام حتـى انتهت إلى حسن الجاويط و سيد بسيوني وسلمان الجربـوع وراتب أبو عرام.. وأسماء أخرى لمكليات صغيرة وهميـة تجدد نفسها بتجدد صدور الأحكام لصالحي يريدون أن يشتتوا دمي بينهم وبين الحكومة.

أكاد أر لعابهم يسيل أمامي كالكلاب المسعورة وهم في ذروة النشوة بالسرقة والاعتداء على مال الغير.

سبحانك لك في خلقك شئون، وأنت تعلم وأنا لا أعلـم. فما أوتيت من علمك إلا أقل القليل. إنني أتأمل وجوه هـؤلاء القوم فألحظ في عيونهم قلقا وزيغا وارتعاشا لا يهدأ أبدا.

لماذا لا يطمئنون؟.. ما لهم يسعدون في شبق جنوني بالاحتيال والغش – والخديعة؟ إني أعلم يا مولاي أنك تحب في عبادك التأمل والتفكير، فاغفر لي جرأتي حين يدركني العجب من حكمتك في خلقك لهؤلاء الناس أكثر مما يدركني من حكمتك في خلق الأفاعي والثعالب والعقارب.

وكان لا بد أن أواجه حسن الجاويط رغم تحذير أمي.. أريد أن أتفرس في معالم وجه هذا الخائن لأدرس علامات الخسة والوضاعة على خطوط جبينه وتجاعيد وجهه.. ذلك البني آدم الذي كان يهرول مسرعا نحو أبي حين يزور الأرض، ليحمل حقائبه ويفتح أبواب الفيلا ويعد له مجلسه.

حين ألغى عبد الناصر الألقاب فوجئ أبي بحسن يقول له متشفيا:

- خلاص.. بقينا واحدا يا جدار.

صعق أبي لصفاقته في رفع الكلفة وقلة الحياء ونكران الجميل، لكنه تمالك نفسه وسأله بحكمة:

- كيف يا حسن؟

- ألم تسمع أنه لم تعد هناك ألقاب؟

- بل سمعت يا حسن، ولكني لم أقصر معك في شيء، وأعتقد أنك كنت ومازلت سعيدا بعملك عندي بغض النظـر عن الألقاب؟

- الوضع أصبح الآن مختلفا

وضع أبي يده في جيبه وأخرج ورقة من فئة العشـرة جنيهات ومد بها يده إليه قائلا:

- خذ هذه يا حسن للأولاد.. أنت رجل طيب.

اندفع إلى يده يقبلها قائلا في عفوية العبد:

- ربنا يخليك لنا يا سعادة الباشا.

... أريد أن أتغلغل ببصيرتي في تلافيف قلبه لأدرك كم سواده وغلاظته وظلمته. لا بد أن أواجهه رغم تحذير أمي.

- لم فعلت هذا يا حسن؟

حين يكون المال هو أم الشهوات علـى كيـان آدمـي، فملامح وجهه في أي مكان على كوكب الأرض لن تختلـف في شيء عن ملامح وجه حسن الجـاويط. تلـك الملامـح الطافحة بالجوع والنهم والبؤس والطمع والعـذاب والقلـق، حتى ولو ضحك صاحبها وقهقه عاليا. إنها ملامح تخلو تماما من إشعاعات الرضا وعلامات السكينة.

كان يرمقني في ارتباك وأنا أقـرأ ملامحـه وانتظـر إجابته. ربما فكر في تلك اللحظة أنني أنوي به شرا. ربمـا كان خائفا مني. ربما كان مطمئنا لاسـتناده إلـى السـلطة والثورة ممثلتين في سيده اللص سيد بسيوني، ربما تعرض – والله أعلم – لاختلاجه ضمير أثارت فيـه شـعورا بالخسـة والانحطاط.. أو ربما لم يرد شيء من هذا كله على خـاطره بالمرة. عاودت سؤاله حين طال صمته:

- أجبني يا حسن.. هل هذا جزاؤنا؟

قال مخفيا ارتجافه:

- أنا ليس لي شأن. اسأل سيد بسيوني.

لقد أذهلني أن يجمع أفراد الأسـرة فـي حسـن نيـة أزعجتني ونبالة اندثر عصرها على ألا نتعرض لأحد مـن المعتدين إلا من خلال القانون، ومن هذا المنطلق فوضـوني رسميا بصفتي الابن الأكبر في تولي أمر اسـتعادة الأرض يوم تركت الخدمة العسكرية مباشـرة.. رغـم ذلـك فقـد اكتسحتني رغبة في الانتقام عاتية تطيح بحسـن فـي لمـح البصر جزاء خيانته، لولا أن تجاوزتها بمشيئتك ورحمتـك

إلى شعور بالاشمئزاز والتقزز، بحيث لم أستطع إلا أن أقول له من بين ضروسي: منك لله يا حسن.

ارتسمت على وجهه علامات الفرحة بالنجـاة دون أن تتلاشى دهشته، إذ تصور أنني أضعف ممـا كـان يعـرف وينتظر، وكأن وقوف جسدي أمامه كان أكثر إرهابا له مـن توكيلي إياك كي تحاسبه، وكأن انصرافي عنه دون إيذاء قـد أزاح عن كاهله ثقل الدنيا بما عليها.

لم يكن أمامي إلا أن أسلح نفسي بأقوى ما فـي الإرادة الإنسانية من سمو وارتقاء حتى أستطيع التجاوز أيضا عـن مشاعري تجاهه بالاشمئزاز والتقزز، فلما نجحت بفضلك لم أجده أمامي، وإنما وجدت نفسي حرا في الأعالي بعيدا عـن حقده وحسده واعتراضه الباطن والظاهر على مشيئتك.. ويـا أيها الجهل قاتلك الله.

***

الناس المهمون

حين وصل كيسنجر إلى مطار اللـد محاطـة طائرتـه بطائرات الأسطول السادس الأمريكي لضمان حمايته، كـان

يشعر أن مصير العالم بيده وحده، وأنه أهم رجل في الـ دنيا، ورغم ذلك فأنا واثق أنه لم يفكر لحظة واحدة في أن دمـلا صغيرا يمكن أن ينمو فجأة في منتصف مؤخرته ثم يقضـي على حياته في لمح البصر، مهما بلغ عدد الطائرات المحيطة بطائرته.

حسن أيها القوم.. إنكم جمعيا مهمـون جـدا. مهمـون لدرجة انعدام أهمية الآخرين وانعدام حقهم فـي مشـاركتكم الحياة والأرض والهواء والشمس والقمر.. لكن، وماذا بعـد. هذا هو التساؤل:

- وماذا بعد يا سيادة المأمور؟

أجاب ببرود حاول أن يخفي ما تمكر به عيناه.

- لست أعرف.

- أنت مطالب بتمكيننا الفـوري مـن الأرض بـالقوة الجبرية.

قال من علٍ:

- عندي لك نصيحة لـو اسـتمعت إليهـا لاسـترحت وأرحت.

المأمور أسنانه صفراء دليل على قذارة قلبه. همس لي بابتسامة كالحة كدت أتقيأ لرؤيتها:

- الرجل بيده حل المشكلة من جذورها.
- أي رجل؟.. وزير العدل أم وزير الداخلية؟
- سيد بسيوني.
- كيف؟
- نجتمع ثلاثتنا في المساء.
- أين؟
- في المكان الذي تختاره. عندك. عنده. عندي.

رأيت أوراق النقد العفنة وهي تتساقط محترقة من فمـه وأنفه وعينيه.. في نظرته بكاء على الحياة وهو حي يرزق، فكيف به لحظة الغرغرة؟

ارحمني يا مولاي من هؤلاء الناس...

إنني أحاول الاهتداء - بقدرتك - إليك بعد طول ضلال وأنا أعرف أنك تؤدبني وتعاقبني في دنياي لأنـك تحبنـي، فلطالما تركت بيتي خربا وانشغلت بتزيين الطريق إليه.

***

معركة أم كتاف

نعم أنت تحبني يا مولاي.. فقد كانت طلقات الرصاص وشظايا القنابل تئز من حولي. تكاد تلامـس أذنـي وشـعر رأسي وأنا أجري للاحتماء بالملجأ، لكن واحـدة منهـا لـم تصبني، وحين رآني العقيد نشأت أمامه بلحمـي وشـحمي ألجمته الفرحة فسقط مغشيا عليه، ولمـا أفـاق راح يقبلنـي ويبكي، وقبل أن يبادلني الحديث بكلمة واحدة قـام يصـلي شكرا لك.

كان اليهود قد احتلوا قاعدتين مصريتين بموقع حسـاس في غمرة الارتباك الذي أحدثته الثغـرة، أحـدهما حقيقيـة والأخرى هيكلية حاكمة تقع على تل مرتفع على مقربة مـن جبل اسمه أم كتاف، وكانت تلك القاعدة تهدد لواء مصـريا كاملا يقع في مدى أبعد بقليل من مدى نيرانهم، بحيث يمكنهم تدميره ولو واتتهم الفرصة للقيام بهجوم مفاجئ.

في كل يوم ما إن تغرب الشمس حتى تتسـلل القـوات الإسرائيلية من القاعدة الحاكمة إلى القاعدة الحقيقية هربا من

قتال الليل معنا، وتفاديا لاشتراك الطيران فـي أي معركـة محتملة.. ومع أول ضوء تعود إلى القاعدة الحاكمة عبر مدق يعرف بالمدق ١٣.

قال لي العقيد نشأت:

- أنا لا أثق في مخلوق يمكنني تكليفـه بهـذه المهمـة سواك. إنني أحملك مسئولية تأمين اللـواء ووقايتـه مـن أي هجوم مضاد، فهل تستطيع احتلال القاعدة الحاكمة؟

نعم.. أنت تحبني يا مولاي..

حين وصل الإسرائيليون إلى منتصف المدق ١٣ أثنـاء عودتهم إلى القاعدة الحقيقية، أطلقت نيرانـي علـيهم فجـأة وبتركيز عنيف أحدث ارتباكا شديدا بين صفوفهم فكانوا أمام خيارين لا ثالث لهما، فإما إن يعودوا بسرعة إلـى القاعـدة الحاكمة ليتمكنوا من تدميري وهذا يعرضهم إلـى خسـائر فادحة في معداتهم وأرواحهم في طريق العودة المرتبكة، وإما أن يواصلوا الفرار بأقصى ما يستطيعون من سـرعة إلـى القاعدة الحقيقية، وهذا ما فعلوه... وفي زمن قياسي تمكنـت قواتي من احتلال القاعدة الحاكمة ورفع علم مصر عليها.

.. وكانت الساعات القليلة الفاصلة بين توقيت احتلالـي للقاعدة وبزوغ أول ضوء في الفجر، كافيـة لمعرفتـك يـا مولاي.

الحق يا فندم.. قول دبابات قادم إلينا على المدق.

على مطلع المدق تبتان مرتفعتان، لو تمكن العدو مـن الوصول إليهما لاستطاع تدمير قوتنا مـن كـل الاتجاهـات الممكنة. اصطحبت تسعة أفراد في ناقلـة جنـود مسـلحين بالصواريخ المضادة للدبابات، مندفعا بأقصى سرعة لامتطاء إحدى التبتين.

فوجئت في طريقي بعربة استطلاع نصف جنزير يقف عليها قادة القول الإسرائيلي على بعد لا يزيد على خمسـين مترا وقد برزت من خاف منعطف رملي، ومثلمـا فوجئـت فوجئوا بي هم أيضا، لكن رشاشات مركبتي جعلـت جثـثهم تتناثر بشكل مفزع ومروع، مما اضطر سائقهم إلى التراجع فسقطت العربة في الجرف أسفل التبة وانفجرت بمـن فيهـا واشتعلت بالنيران حتى تفحمت. وكانت أولى دبابات القـول الإسرائيلي تقترب من مدخل المـدق حـين سـمع طاقمهـا الانفجار ورأوه بأعينهم ففروا تاركين دبابتهم التي تلقت أول

صاروخ مضاد جعلها تقفز فوق الأرض – رغم ثقلها الشديد – بما يقرب من المتر وهي مشتعلة فسدت الطريق أمام بقية القول.

انهال الجنود بصواريخهم على الدبابة الثانيـة فالثالثـة فالرابعة، وكان صياحهم وصـراخهم وتهلـيلهم وتكبيـرهم يجلجل في الفضاء.

جمعنا بعض الأسرى ولاذ بقية القول بالفرار وهو يطلق علينا نيرانا طائشة أمرت سائق المركبة بالعودة فـورا إلـى التبة لإمكان السيطرة على الموقع ومتابعة القتـال قبـل أن يعاود العدو هجومه، ولكني فوجئت بأسنانه تصطك بشدة وقد أصيب بهلع التدمير الشديد، فأصبح عاجزا عـن الاسـتجابة تماما ويداه متصلبتين على مقود العربة.

أصدرت أوامري لبقية الجنود بالوصول إلى التبة جريا على الأقدام بأقصى سرعة ممكنة، على أن ألحق بهـم بعـد استخلاص السائق المتشنج من العربة. قوبلت بعاصفة مـن المعارضة لتعريض نفسي للموت، حسمتها على الفور بـأمر قاطع.

حين تجاوزت ثلثي الطريق إلى التبة حاملا الجندي على ظهري تارة ودافعا إياه أمامي تارة أخـرى انهالـت علينـا الرشاشات من كل جانب، فألقيت به وبنفسي إلـى الأرض، وظللنا بين ركض وزحف حتى وصلنا بكرم الله إلى التبـة.. ولم يكن أحدنا يفكر في تلك اللحظات الرهيبة أن أيام الـدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود، ويوم نحيـاه لا يـدوم، ويـوم لا يدري أحدنا ما حاله ومن أهله.

انتهت المعركة بأسر بعض أفراد العدو وتدمير دباباتـه وعرباته المجنزرة وعرباته حاملة الأفراد، وكانت خسائرهم في الأرواح كبيرة باعتراف قيادتهم.

أيقن العقيد نشأت أنني في عداد الشهداء نظـرا لكثافـة النيران التي أطلقت علي والتي كان يتابعها من موقع القيـادة على الجبل، حتى أنه فقد الفرحة بانتصار قواتـه واحـتلال القاعدة وتأمين حماية اللواء وجلس يبكيني بحرقـة إلـى أن فوجئ بي واقفا أمامه بلحمي وشحمي.

***

شيرين

نعم يا مولاي. أنت تحبني..

فلولا حبك لي، لما أنقذتني من حبائل شيرين..

بالمعروف افترقت عن سمية لأنها أرادت أن تحبني طبقا لمواصفات قياسية من ابتكارها، وأنا حين أحب إنسانا أسلمه قلبي وأحبه على ما هو عليه من صفات حميدة وغير حميدة، وأنتظر منه أن يحبني هو الآخر كما كما أنا وليس كما يريدني أن أكون.

وقلت أكمل نصف ديني فقدمني علية القوم إلى شيرين.. ومثلما كنت سخيا في جاهليتي الأولى كنت سخيا معها، لكنها لم تختلف عن بقية الخلق في شيء ظنت بي الغفلة والبله.

لست أدري يا مولاي لماذا يستسهل كل من أعرفه أو أحبه ابتزازي والاستخفاف بعقلي؟ هل هناك علامة خفية في وجهي تشجعهم على استحلال مالي؟ إنني أرى المال في خزانتك يا مولاي لا في خزانتي ولا في يدي. هل هناك حروف غامضة في كلماتي تغريهم باستغفالي؟

ليتني أصل إلى مفهوم الكرم والسخاء عند هؤلاء الناس. لا شك أنهم لا يعلمون أن السخي قريـب مـن الله والجنـة والناس بعيد عن النار، وأن البخيل بعيد من الله والجنة قريب من النار، وأنه لولا السهو والأمل لما مشى المسـلمون فـي الطرقات.

في البداية لم أنتبه، وذلك لحسن نواياي تجاهها. لكنـي تبينت تناقصا ملحوظًا فيما أتركه في البيت من مال يخصني خلاف ما أخصها به، وكان هذا التناقص يتزايد يومـا بعـد يوم، لكنه لم يتوقف يوما واحدا.. وفضلا عن ذلك فإنها كانت شديدة الإلحاح في طلب المزيد مدعية رغبتها في شراء أشياء عديدة.

لم يكن هناك مفر من الشك، كما لم يكن هناك بد مـن كمين أنصبه لها كي أقطع هذا الشك بيقين.

فوجئت بوجهي هاشا باشا أدعوها إلى العشاء في أحـد المطاعم الكبرى ما إن دخلنا حتى هرول نحـوي صـاحب المطعم ومن حوله مساعدوه حيث قادنا إلى المائدة الرئيسـية التي تتصدر تسع موائد أخرى حافلـة بالطعـام والشـراب والفاكهة. تفقدت الموائد وأمرت بإضافة أصناف أخرى مـن

الأسماك والقواقع البحرية والفواكه، ولمـا جلسـنا بـادرني صاحب المطعم قائلا في تباه:

الموائد العشر جاهزة يا باشا وعلى كل مائـدة طعـام لعشرة أفراد.

نظرت إليه شرين في دهشة ثم التفتـت إلـي متسـائلة فتركتها غارقة في حيرتها، بينمـا واصـل الرجـل حديثـه متسائلا:

- متى يصل المدعوون بإذن الله؟

أجبته في حسم:

- لا تشغل بالك بهذه المسألة.. المهم أن تكون الخدمـة ممتازة

وقالت شيرين:

- ما الحكاية يا أحمد؟

- أنا في انتظار الضيوف وسوف تفهمين بإذن الله.

- أي ضيوف هؤلاء، وكيف لم تخبرني وما المناسـبة ولماذا هم مائة؟

- لا تتعجلي.. كل شيء بأوانه

كنت مستمتعا في براءة بملامح وجه صاحب المطعم وهو يحوم من حولي عن بعد وينظر بقلق متصاعد في ساعته من حين إلى آخر، لكن متعتي بحيرة شيرين وارتباكها كانت متعة سادية بحق.

أنا لست ساذجا أيها الناس، ولو أن الدنيا ما عمرت إلا لقلة عقول أهلها بغفلتهم عن الموت. ربما أكون أكثر منكم فطنة بإرادة الله ولكني لست أحب التباهي والعجب.

صرخت شيرين في عصبية:

- لا بد أن أفهم ما يحدث.

- هل أنت مصرة؟

- نعم أرجوك.

- فكم سرقت من حقيبتي بالأمس، وما مجموع ما سرقِته مني حتى الآن؟

- لابد أنك جننت.

- أنت تعلمين أنني عاقل وأنك كاذبة.

سارعت باتخاذ الهجوم وسيلة للدفاع:

- وما الغريب في أن تأخذ زوجة من مال زوجها؟ لـم أكن أتصور أنك شحيح لدرجة أن تحصي النقود على شريكة حياتك.

انفجرت في الضحك فهرول صاحب المطعـم تجـاهي منتهزا فرصة صفائي ليعاود سؤاله في حرج:

- لم يصل واحد من الضيوف يا باشا حتى الآن.

قلت له في هدوء أثار ارتباكه:

- لا تقلق.

وبنفس الهدوء قلت لشيرين:

- إنك سرقت ما يقرب من ألفي جنيه خلال الأسـابيع الثلاثة الماضية، أي منذ ليلة الزفاف حتى أمس الأول، وأنـا متنازل عنهم.. أما المائة جنيه التي سرقِتها بالأمس فإن لـم تعترفي بها الآن سأطلقك على الفور.

والمؤسف أنها لم تكن موبوءة بهذا الـداء وحـدها، إذ لاحظت أنها تتزعم مجموعة من الصديقات تدير لهن شئون علاقاتهن بأزواجهن من خلال التليفون ولقاءات النادي، إدارة مبعثها تسلط غريب، حتى أنني فوجئت بهـا يومـا تقـول لإحداهن في التليفون:

- لن يمضي هذا الشهر حتى أكون قـد نجحـت فـي ترويضه.

فتحت فمها على اتساعه وأنا أدفع لصاحب المطعم مـا يزيد على ثلاثة آلاف جنيه وكان الرجل قد تأكد بـلا أدنـى شك أنني مجنون وهو يتناول مني ثمن الطعـام والشـراب الموضوع على الموائد العشر الفارغة. سألني في ذهول:

والطعام يا باشا؟

نظرت في ساعتي وقلت له في ثقة تامة:

حالا سيصل من يقضون عليه حتى آخره ولكن أرجـو أن تحسن معاملتهم. وعلى سلم النزول التقيت بالعشرات من أهلك يا مولاي يتدافعون في فوضى جميلة قادمين من المولد المقام بأحد المساجد القريبة من المطعم.

تذوقت طعم الحرية بلا امرأة. كلما تحررت من ارتباط أنثوي مهما كانت متعته شعرت بأنني أكثر سعادة وانعتاقـا، وكأن القدر يهيؤني لحياة غامضة جديدة حافلة بأسرار البهجة الحقيقية، مترعة بنفحات الحب الخالـد وأنـوار الخـلاص الأبدي، حيث لا غواية ولا شهوة ولا امتناع ولا تـدلل ولا كذب ولا رياء. إن شروطي للزوجة الغائصة في لجة الغيب

شروط مستحيلة لأنها لا تعرف الزوال، ولعلهـا تنتظرنـي بأمرك على أحر من الجمر في العالم الآخر وليس فـي أي منزل على وجه الأرض.

وللإنصاف لا بد أن أقر لنفسي بأنني إنسـان صـعب المعاشرة، ذلك أنني أدور بكياني كله في فلك مـنهج "دنيـا أخروي" قد يكون محدد المسار ولكن تعاستي تكمن في أنـي دائم الطمع في تجاوزه إلى المسار الأعلى دون أن أسـارع الخطى لتحقيق ذلك، فأرتبك وأربك من تعاشرني، حتى أنني سمعت العبارة نفسها تقال لي من العديد مـن النسـاء بعـد هجري لهن:

- ماذا تريد مني؟

وتكون إجابتي الهروبية العاجزة دائما:

- لست أريد شيئا؟

أما الإجابة الحقيقية المطوية أبدا في صـدري والتـي أعجز عن مواجهتها فكانت دائما:

- لست أعرف.

وقال أحد الفقهاء لأبي حيان التوحيدي "ما أشبه الـدنيا وخداعها إلا بقحبة حسناء تغازلك وتشير إليك وترغب فيـك

حتى إذا أجبتها ودنوت منها صـاحت بـالوالي وصـرخت بالناس وأسلمتك إلى الفضيحة وزودتك الندم وعض الأنامـل من الغيظ" وقلت لشيرين باقتناع شديد:

- أنت طالق.

***

النيابة

قال لي المحامي الكبير فوزي عطا الله:

- يجب أن تعلم أن يد بسيوني تطـول كـل الجهـات التنفيذية والتشريعية في البلد.

- هل يعني هذا أن أستسلم له؟

- بل يعني المزيد من الحذر.

وقلت لنفسي لعل هذه اليد لا تطولك أنت الآخر يا عطا الله فإنني مرتاب في - أنفك المعقوف، الشبيه بأنف كيسـنجر البواس، وحسن السمسار، والقائد الجديد.

رفضت اللقاء مع المأمور وسيد بسيوني وأبلغت مسئولا كبيرا في البوليس بتواطئه مع خصمي فما كان منـه إلا أن نقل المأمور بشحمه ولحمه وخيانته إلى منطقة أخرى. لكني لم أكن أعلم أن وكيل النيابة الذي جاء لمعاينة الحالـة علـى الأرض قد كتب في تقريره أنها ليسـت الأرض موضـوع النزاع وإنما حددها بقطعة أرض أخرى تبعد عـن أرضـنا بكيلو مترين، متناسيا أن جيراننا في نفـس الموقـع بـاقون

بأجسادهم وأرواحهم وبيوتهم دون أن ينتقلوا أو يسري بهم مسافة كيلو مترين!

لم يكن فوزي عطا الله مبالغًا في تحذيره، ولكني ما زلت مرتابا في أنفه المعقوف مثلما ارتبت في أسنان المأمور الصفراء.

كان ذلك التقرير المضلل سببا في استناد الخصوم إلى وثيقة تشير مبدئيا إلى حيازتهم الحالية للأرض. ولقد انتهى دورهم المرسوم لهم عند هذه المرحلة لتنتقل الأوراق كافة إلى ملكية سيد بسيوني بعد أن يدفع لهم – ولغيرهم من سيستخدمهم بعد ذلك – الفتات الذي يستحقونه عن جدارة، ليصبح الصراع منحصرا في النهاية بين آل الجدار وسيد بسيوني ومعه ذيول أخرى على رأسهم ذلك السلمان الجربوع الذي جاء من ليبيا خصيصا ليكتشف تلك العلامة الخفية على وجهي والحروف الغامضة في كلماتي لأغريه باستغفالي، فينشئ على أرضي محطة بنزين غير مرخصة وبدون تسجيل ملكية وبعقد مزور، ويقوم بتشغيلها رغم أنفي وأنف الحكومة الطويل وأنف فوزي عطا الله المعقوف.

لم يدهشني ذلك كله، وإنما الذي أدهشني حقا أنـه بعـد مرور أكثر من عشرة أعوام علـى تلـك الخديعـة التيـت مصادفة بوكيل النيابة ففوجئت به يقبل علي مهلـلا بوجـه ضاحك سعيد، فاتحا ذراعيه عـن آخرهمـا، منـدفعا فـي احتضاني بصدره كما لو كان شقيقا قادما من سفر بعيد.. فما كان مني إلا أن بادلته العناق بحرارة مماثلـة دون أن أدري سببا لما يحدث، بل إني أمعنت في إظهار محبتي فقبلته مـن خديه ولم أكن أذكر اسمه كما أنني لم أكن أذكر من هو هـذا المخلوق على الإطلاق، لولا أن عرفني بنفسه.

وتركته دون أن أسأله ماذا يريد، ولماذا فعل ما فعـل، ودون أن أسأل نفسي أيضا لماذا فعلت ما فعلت. إن ارتباطي بالناس هش واحتياجي يا مولاي عظيم لأن تحررني مـنهم وتغنيني بك عنهم.

تعبت يا مولاي..

قالت لي طفلتي الوحيدة التي خرجت بها من الدنيا:

لماذا لا تزورنا يا أبي؟.. إنك توحشني كثيرا.

وقالت سمية في غل متفجر وهي أدرى بادعائها:

- إنني لم أر والدا في قسوتك.

منذ تركت الجيش ضاع ليلي ونهـاري بـين القضـاة والمحامين والشهود وأقسام البوليس. عزائي يا بنتـي أنني أجاهد لانتزاع حقك حتى تذكريني بالخير بعد أن ألقى ربي. إنه لا حيلة في الرزق، ولكني مطالب بالسعي حتى لا تقولي لأبنائك حين تكبرين: إن اللصـوص سـرقوا أرض جـدكم الغائب وتركني وحيدة بلا حول ولا قوة..

أقول لك هذا يا راوية وهاتف يهتف بي متسـائلا مـاذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق سطحه ويبقى جوفه موحشا؟

لا تتخيلين يا راوية كم أتوق إلـى حضـنك الصـغير وقبلاتك الجميلة وتساؤلاتك البريئـة عـن الحيـاة والـدنيا والناس.. ولكني أفضل أن تبقي بعيدة عني حتى لا تطولـك أيدي البغاة. إنهم لا يعلمون عنك شيئا، ولو علموا بوجـودك لما ترددوا في خطفك أو إيذائك بحيث أستسلم لخستهم الدنيئة وأسلمهم عرضي وتاريخ أجدادي.

أنا أعلم أنك شقية تعسة بحرمانك مني، ولكنـك يومـا ستفهمين مدى خوفي عليك، فهذا قضاء الله وقدره، وعلينا أن نسلم به يا بنتي الحبيبة.

تعلم سمية جيدا أن قلبي لا يعرف القسوة. إنني مشـفق على محاولاتها الاستفزازية لرجوعي إليها، ولكن هكذا أمر.

وقالت جولدا مائير لكيسنجر في رسـالتها – بعـد أن خرقت وقف إطلاق النار بغية قطع الطريق بـين السـويس والقاهرة – إنه لا الحكومة الإسرائيلية ولا أي طرف آخـر يستطيع أن يحدد على وجه القطع أين كانت الخطـوط بـين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية عند منتصف ليلـة ٢٢ أكتوبر، وبالتالي فالحكومة الإسرائيلية لا تعرف إلى أين تأمر قواتها بالانسحاب.

وكنت بحاجة ماسة إلى رجال يقفون معي بصدورهم في العامرية كهؤلاء الرجال الذين وقفوا معي في الكيلـو ١٠١، وتساءلت: ترى هل أجدهم؟

أخذ العدوان يستفحل والمباني تعلو وقرارات المعاينـة والتمكين تتوالى دون جدوى، وكأننا نعيش فـي غابـة مـن الوحوش اسمها مصر.. وقال بريجينيف – الذي لا يعـرف الله – في إنذاره الحاسم:

"نظرا لأن إسرائيل لم تلتزم بقرارات مجلـس الأمـن، ونظرا لما يبدو من أن الولايات المتحدة تنقصها الرغبة فـي

التعاون بغرض تطبيقه، فإن الاتحاد السوفيتي سوف يقـرر بنفسه منفردا اتخاذ الخطوات الضـرورية العاجلـة لتأكيـد احترام وقف إطلاق النار، فلا يمكن لإسرائيل أن تفلت مـن مسئولية انتهاكاتها له".. ألا من بريجينيف مصري يعرف الله ويقف معي؟!

***

الجربوع

لقد تعبت يا مولاي..

إن أمة خلقك في أرض مصر بأكملها تقف مع الجربوع وهو يقيم محطة البنزين.. شركة موبيل - وأصحابها أجانب - تسانده وتعضده وتدافع عنه دفاعا مستميتا. حـي غـرب المدينة – وأصحابه مصريون – يسـانده ويـدعم موقفـه، والجميع يتسترون على خطأ قانوني صارخ مـع اخـتلاف أسبابهم ونواياهم.. حتى الأهالي سارعوا إلـى العمـل فـي خدمته، إما لأنهم لا يعلمون أنني قاتلت الموت دفاعـا عـن أرضهم، وإما لأنهم يعلمون ولا يعبئون.

لقد أثبتنا للمحكمة أن عقد ملكية الجربوع مزور، لأنـه يخص منزلا بالقاهرة مات صـاحبه منـذ عـدة سـنوات.. وكالمعتاد قال البوليس كلمته وقالت النيابة كلمتها ثـم قالـت المحكمة كلمتها، ومازال الجربوع راسخا على أرضي يضخ منها البنزين، فلماذا يا مولاي استباح الجميـع دمـي حتـى القادمون من أقصى غرب مصر، وكأنني قد حظيت بشـهرة عالمية في السذاجة وسهولة التخلي عن الحق؟.. لمـاذا يـا مولاي حين تقدمت لأرضي ودولتي وناسي وحكومتي مـن قبل بطلب إقامة محطة مماثلة على أرضي قالوا لي إن هـذا الأمر دونه الأهوال.. عليك يا أحمد يا بن الجدار أن تحضر لنا أوراقا وزنها ألف طن وطولها ألف ألف متـر.. عليـك بالتوقيعات والاعتمادات والتمغات والترخيصات.. وقبل هذا كله عليك بإحضار أهم وثيقة في الدنيا وهي وثيقـة ملكيتـك للأرض التي نعرف أنك مالكها.

وأحضرت لهم يا مولاي كل ما طلبوا، ولكنهم وافقـوا للجربوع أن يبني محطة على أرضي ولم يوافقوا لي.

أيام عبد الناصر كانت التعليمات واضحة قاطعـة فـي أقسام الشرطة ومراكز التحقيق:

"انصروا الليبي على المصري ظالما أو مظلوما"... أما في أيامنا هذه فالتعليمات ليست واضـحة وليسـت قاطعـة، ولكنها تقول: "انصروا صاحب أي جنسية في الـدنيا علـى المصري ظالما كان أو مظلوما"..

وبمرور الزمن تفننت التعليمات في ظلم المصري بـأن أوقعته عليه خارج أرضه أيضا، فهو يرسـل إلـى العـراق بجسده وروحه فيعود بجسده فقط داخل تابوت، وهو يرسـل إلى الكويت مقاتلا بدون أجر ليعود بدون شكر، وإلى ليبيـا عاملا بأجر فيعود بجلبابه فقط بعد سنوات من الكدح، وإلـى الأردن ليعاد جثة مصحوبة بشهادة إعدام محررة قبل مقتلـه بعدة أشهر، وإلى اليمن فلا يعود، وإلى الصومال فيعود معاقا بلا يدين أو قدمين.. ومن العجيب أنه مستعد دائما لأن يرسل إلى أي مكان فلا يعترض، عسى أن يكون هذا المكان أفضل وأكرم..ترى هل يفكرون في إرسالي أنا الآخر إلـى مكـان غير مصر يوقعون فيه علي مزيدا من الظلم والإيذاء؟

والله لو أرسلوني فلن أقول لا!

***

المجاهدون

لا بد أن في الأمر شيئا يستعصي على فهمـي. إننـي عاجز عن التقدم خطوة واحدة للحصول على حقي رغـم أن محامي الأخير"عبد الله رمضان" مازال صامدا يصارع معي عتاة اللصوص، وهو رجل يعرف الله، وأكاد أجزم أنه لـن يخونني، بل إنه مشفق على حالي حريص على مالي.. أمـا أنت يا عطا الله فحسابي معك عسير.

سبحانك يا مولاي حين تستر وسبحانك حين تفضح..

عندما صدر حكم مؤقت جديد باستلامنا الأرض، كلفت ابن شقيقتي "أشرف" بالإشراف على مائة حارس أتيت بهـم من أهل قريتي وبعض القرى المجاورة لتأمين حماية الأرض أثناء الاستلام وبعده. ولقـد كلفتنـي رواتـبهم ومصـاريف إعاشتهم الكاملة مبالغ من المال طائلـة، حتـى أن صـديقي المقدم خالد سليم استحلفني برفقة الموت التي جمعـت بيننـا يوما أن أقبل منه عشرين ألف جنيه على سـبيل المشـاركة الوقتية في الأزمة. جاءني بالمنزل ومعه حقيبة تعمد نسيانها

عند انصرافه لأنه يعلم أنني سوف أرفض مساعدته فأنـا لا أقبل المساعدة إلا من الله.

اتصلت به حين اكتشفت الحقيبة المغلقة فأقسم على نفسه يمينا بالطلاق أن أقبل القرض، ووجدت نفسي مسـاقا إلـى القبول فأدركت أنه سبب من الله.. وفي المساء أرغمته على قبول شيكات موقعة بالمبلغ تحسبا للمجهول.

حمدت الله كثيرا حين وجدت رجالي متعـاطفين معـي بقلوبهم وأجسادهم إلى درجة تطلبت مني ومـن أشـرف أن نكون في غاية الحذر خشية أن تسيل الدماء بينهم وبين رجال سيد بسيوني الذين جلبهم من المواخير والبارات ومن أعوانه في تجارة المخدرات.

في لحظة العمر الحاسمة، والتي سوف تؤدي إلى تغيير مجرى حياتي وحياة أهلي وأقاربي وأصدقائي وكل من أحب من الناس، فوجئت باختفاء رجالي جميعا وكأن الأرض قـد انشقت فابتلعتهم، رغم أن أشرف كان قد حـدد لكـل مـنهم الجزء الذي سيحتله من الأرض لحظة التسليم والتحرير.

وسط هذا الارتباك وفي لحظة كلمح البصر رأيت عطا الله يتهامس مع الضابط المنفذ ومعه المحضر وبعض رجال

سيد بسيوني المقيمون بالأرض المحتلة كما لو كـان يلقـنهم شيئا ما. صرخت في أشرف دون أن يلحظني عطا الله:

- أين الرجال؟
- أبعدتهم عن الأرض طبقا لتعليماتك.
- تعليماتي؟...ومن الذي أبلغك بهذه التعليمات؟
- فوزي عطا الله.

لم أصدق أذني. تمالكت نفسي حين عاد عطا الله ومعه أحد رجال بسيوني الذين فوجئوا بحضور القـوة فسـارعوا بإبلاغ سيدهم بما حدث.. وإذا بالضابط يقول له:

- استشكل في الحكم يا ريس.

وعلى الفور استجاب الرجل للنصيحة الآمـرة، وكـأن الضابط كان ينتظر هذه اللحظة فأعلن إيقاف تنفيـذ الحكـم بتسليم الأرض بناء على هذا الاستشكال، وأمـر المحضـر بإثبات ما حدث. انفجرت في وجه الضابط:

- أنت مرتش يا حضرة الضابط.
- عيب يا باشا.

- باشا ايه ونيلة ايه.. راعِ ضميرك يا أخي.. مسئوليتك هي تأمين حمايتي ضد خصمي لا التواطؤ معه لإيقاف تنفيذ الحكم.

في الطريق إلى العجمي كنا أربعة: أنا ومن خلفي اثنان من رجالي سيد الطواجني ويوسف أبـو ريـة.. وبجـواري فوزي عطا الله يقود عربته. لم أبادلـه كلمـة واحـدة منـذ اكتشفت خيانته الصارخة. كانت يداه ترتعشان علـى مقـود العربة وتجنب أن ينظر إلى وجهي تماما.

كنت منشغلا بأمر واحد هو كيفية البحث عـن مبـرر لإيقاف العربة حتى أقتله، وتشاء الظروف أن ينفد البنـزين فتقف العربة من تلقاء نفسها بجانب الطريق وينـزل فـوزي ليفحص خزان الوقود. في تلك اللحظة أخرجت طبنجتي وإذا بسيد الطواجني يلقي بنفسه من الخلف فوقي صائحا:

أستحلفك بالله يا حاج أحمد. لا تضيع نفسك فـي كلـب كهذا. نحن نقتله لك.

وأدركت حكمتك يا مولاي في كل ما حدث فأيقنـت أن أوان استرداد الأرض لم يؤن بعد وأن أرضي ستظل إلى أن

تشاء بمشيئتك وحدك مشتتة بين سيد بسيوني وسلمان الجربوع وبعض حثالة الأعراب.

فوزي عطا الله أكل معي في بيتي، واستنزف مالي، ورغم ذلك باع نفسه للباغي، فأي ابتلاء يا مولاي تلقي به على كاهلي؟

إن منتهى أملي في دار الفناء صدقة جارية، وهذا لن يتأتى لي بغير استرداد أرضي وتحقيق حلمي بالتفرغ لعبادتك وإسعاد أهلك والاستغناء عن التعامل مع الناس.. وأرضي يا مولاي بلاء، وأنا أعلم أن من هرب من البلاء لا يصل إلى باب الولاء... الأرض بلاء والناس بلاء، وما بأيديهم غير الوهم والزوال والمادة، أما أنت فإنك الباقي الحقيقي والدائم. في دماء الناس يا مولاي تجري الخيانة. يتشبثون بالدنيا تشبث الكلاب بجيفة نتنة.

يشترون القبح بالجمال والباطل بالحق. يتزاحمون يتنافسون.. لكني مشتاق إلى نعمة منك لا زحمة فيها ولا كدر ولا مكابدة ولا منافسة، فألهمني الصبر يا مولاي وانصرني ولا تخذلني انشلني برحمتك من سلامة لا يعقبها إلا السقم، ونعيم لا يثمر إلا الحسرة والندم.. أقول لك الحق

يا مولاي لو كان الأمر بيدي لزهدت الأرض والناس والدنيا وأفنيت ذاتي في محبتك لكن أمري بيدك، فافعل بي ما تشاء.

قال لي واحد من الأعراب في ذلة:

- أنا أعلم أنها أرضك، ولكني أطمع في كرمك يا حاج. هبها لوجه الله، فأنا وأولادي بلا مأوى وسوف أكون خادمك المطيع وحارسك الأمين.

ولما تمكن من الأرض بني فوقها، ولما تمكن مني بـاع الأرض المحيطة بالبناء، ولما قيل له إنها أرض الحاج أحمد الجدار قال بحرقة:

- أنا أعلم بذلك، ولو جاء هنا سأقتله.

ولكنك لم تمهله إذ أسقمته بشلل ألجم لسانه ويده.. ولـم يمض عليه أسبوع حتى مات، وما أعجب أبناءه فإنهم مازالوا يقاضونني حتى اليوم لانتزاع أرضي، وكأنهم يصرون على ألا يعتق أبوهم من النار.

***

لماذا لم أكتب روايتي بترتيبها الزمني؟

نصيحتي التي أتوجه بها إلى القارئ الكـريم ألا يخلـط بيني أنا – أحمد الجدار – بطل هذه الرواية وبين سعيد سالم مؤلفها، فأحدنا لا يعرف الآخر، وأهدافنا من نشـر الروايـة تختلف تماما. أنا أتوجه بروايتي إلى الله العليم بأمري والذي لا يحتاج مني إلى ترتيب أو تنميق. أخاطبه بفطرتـي ومـن وحي حال اللحظة. أتكلم إليه مرة عن زوجتي ومـرة عـن جنودي ومرة عن معاناتي مع لصوص البلد.. وهو يحبنـي ولا يريد إرهاقي بحساب أزمنة وتوقيتات لأنـه الأول بـلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، فكيف أشغل بـالي بـالزمن فـي حضرته؟

ولكي أكون صادقا فإنني أفعل كما أمرنا رسـولنا بـأن نستغل رخَص الله، والله قد خلق لنا الأسباب، وأسباب أزمتي في أيدي رجال يعملـون بالسياسـة والاقتصـاد والداخليـة والخارجية، وكلهم لم يأبهوا لي ولم يرقـوا لحـالي، ولهـذا قررت أن أبعث إلى كل منهم بنسخة من روايتي لعـل هـذا يكون سببا في الاهتمام بأمري. ولما كانت قصتي مكتوبة بلا تسلسل زمني فقد يرهقهم فهمها لا لغبائهم – لا سـمح الله –

فكلهم عباقرة يديرون البلاد على خير وجه ممكـن، ولكـن لضيق وقتهم وربما لنفاد صبرهم أو لكثرة عيالهم وقلة مالهم، فالقراءة في وقتنا هذا رفاهية وما أبعد وزراءنـا ومسـئولينا الأعزاء عن الرفاهية والترفيه. إن هؤلاء المساكين لا يجدون وقتا ضئيلا يجالسون فيه أولادهم أو يصطحبونهم معهم فـي سفرياتهم العديدة إلى دول العالم لقضـاء مصـالح شـعبهم الطيب. لهذا عنونت الأحداث بعناوين جانبية تسـهل علـيهم اختيار ما يهمهم قراءته سواء فيما يختص بمشكلتي مع الذين اغتصبوا أرضي بمشكلاتي مع رجـال البـوليس والنيابـة والقضاء والجيش، وربما كان منهم من يحب أن يطلع علـى مشـــكلتي مــــع ســــمية أو شــــيرين أو ميرفت، فبعض كبار القوم أصحاب حظ، ويعشقون النساء وأخبار النساء، وهذا والعياذ بالله لا يمكن أن يتعارض مـع إخلاصهم لوطنهم وتفانهيم في خدمته، ولكن للقلب حقـا أن يفرج عنه ولو قليلا بشيء من الترويح والزغزغة.

كان هذا موقفي، أما سعيد سالم الذي أعطى لنفسه حـق الحديث عني كمؤلف يشطح بخياله كيف يشاء – فمشاكله لا شأن لي بها إن كانت لديه مشاكل تخص حرفته ككاتب فـي

دولة من دول العالم الثالث تعاني الفقر والديون والإرهـاب والتخاف الاقتصادي وتوابعه. إنـه يعلـم جيـدا أن النقـاد التقليديين لن يرحموه، وقد يتهمه بعضهم بالعجز عن الكتابة السلسة التي يتحرك فيها الزمان إلى الأمام بغيـر رجـوع، مماحكة منه فيما ذكرت من حجج تخصني وحـدي كبطـل للرواية.. أما لماذا يكتب ولمن، فهذا أمر لا يعلمـه إلا هـو وخالقه، ولو أني لا أستبعد أن يكون هو الآخر متجها بروايته إلى الله غير عابئ برضاء أحد سواه. والحق أنني لو كانـت أعرفه لنصحته ألا يعبأ بهم، فأنا – صاحب القضية – معجب كل الإعجاب بهذا الشكل المثير الذي صاغ به روايتي ولـو التقيت يوما بهذا الكاتب الماكر لقلت له إن كتابات نقاد هـذه الأيام لا ينبغي أن تؤخذ على محمل الجد عند صاحب الرأي السديد، وذلك لأسباب عديدة جعلتهم يحيدون عن جانب الحق العلمي، وهي فيما أجزم نفس الأسباب التي جعلـت حسـن الجاويط يقبل يد أبي ويسرق أرضه، والتي جعلـت وكيـل النيابة ينقل الأرض من موضعها على الورق، والتي جعلـت قائدي يطمع في ابتزازي، مثلما جعلت أتباع بسيوني يضعون لي الثعبان في مخدعي.

لو كنت أعرفه لرجوته ألا يفعل كما يفعل معظم الكتاب، فلا يهدي نسخة واحدة من روايته – روايتي – لأحد، وعلى من يرغب في نقده مشكورا فليبحث بنفسه عن الرواية، فهذه رواية ضد الشهرة والانتشار والعائد المادي.

إنها رواية إلى الله كما ذكرت أنا في المقدمة التي كتبها المؤلف.

***

الكيلو ١٠١... الوجه:

جرى العرف أن يمتنع الطرفان نهائيا عـن التراشـق بالنيران مهما كانت الأسباب خلال انعقاد مفاوضات الكيلـو ١٠١ بين مصر وإسرائيل، والإسرائيليون لا يضيعون وقتهم سدى، فكانوا يستغلون تلك الفترات في القيام باسـتطلاعات برية لاستكشاف نقاط الضعف في الموقع المصري المواجـه لهم عند الكيلو ١٠١.. أي لاستكشاف نقـاط الضـعف فـي الموقع المصري المواجه لهم عند الكيلو١٠١.. أي موقعي... ولو نجحوا في التسلل عبر المنطقة المحرمة الفاصلة بينـي وبينهم لاكتشفوا أنني أعسكر على تل بلا خلفية تحميه حتـى

مسافة خمسة كيلو مترات، من بعدها يوجد أول تجمع خلفـي لقوات مصرية، فاستطلاع الطيران لا يكشف بدقة عن الخبايا الجغرافية لهذه المنطقة الجبلية الوعرة المعروفة باسم"مشـش البحارة"، ولو تمكن الإسرائيليون من احتلال هـذه المنطقـة الخالية لأصبحت قواتي تحت رحمتهم تماما، وقال كيسـنجر لجولدا مائير في إسرائيل أمام أعضـاء مجلـس الـوزارء الإسرائيلي والقادة العسكريين:

يستطيع جيشك مواصلة عملياته بعد وقف إطلاق النار، على الأقل طوال المدة التي تستغرقها طائرتي من هنا إلـى واشنطن، علما بأنني سوف أتوقف لساعات في لندن!

بينما قال السمسار البواس نفسه فـي رسـالة لـوزير الخارجية المصري حافظ إسماعيل:

أعلمكم أنني استطعت الحصول على موافقـة إسـرائيل على وقف إطلاق النار بصفة عاجلة وبشروط لا تمـنح أي الطرفين ميزة على الطرف الآخر.

وكان السادات قد رفض الاستماع إلـى مستشـاريه أو حتى مقابلتهم؛ إذ قرر أن يواجه الحـل السياسـي بمفـرده، ويمسك بيده وحده كل الخيوط، ورغم أن التقارير العسـكرية

كانت لصالح القوات المصرية إلا أنه أصر على سرعة إصدار قرار وقف إطلاق النار.

أما أنا فلم يكن لدي شيء لأقوله، فقالت لي راوية:

- أريد أن تهزني على الأرجوحة مثلما كنت تفعل زمان.

- لن أستطيع يا راوية خوفا عليك من المجرمين الذين أحاربهم.

- وهل ستظل تعيش وحدك في العجمي حتى تموت وتتركني يا أبي؟

- إن شاء الله سنلتقي يا راوية ونعيش معا إلى الأبد.

***

فوجئت بجنود ثلاثة يعبرون المنطقة المحرمة من الجانب الإسرائيلي أثناء المفاوضات مترجلين في اتجاه موقعي. التفوا وناوروا بذكاء من حول التلال المحيطة بالطريق حتى لا يراهم أحد. كنت وجنودي نتابعهم ونرصدهم حتى تمكنا من أحدهم فأرديناه قتيلا داخل الأرض المصرية، بينما لاذ زميلاه بالفرار عبر المدق إلى منطقتهم.

انقلبت الدنيا فوق أم رأس أحمد الجـدار قائـد الكيلـو ١٠١.. كيف يطلـق هـذا المجنـون النـار أثنـاء انعقـاد المفاوضات لفض الاشتباك؟.. كيف يسيء إلى سمعة مصـر سياسيا؟، ويظهرها بمظهر الدولة التي لا تحترم كلمتهـا ولا تلتزم باتفاقاتها الدولية؟.. كيف يعرض المفاوضات للانهيـار ويكون سببا في عودة القتال من جديد وفشل مساعي الرجـل البواس للسلام الذي تنتظره الدنيا؟.. لاشك أن الجـدار قـد جن... هكذا تحدثت الإشارات وهمست التعليقـات وتوالـت الإنذارات.

كان كل طرف يتسلل بجنوده في الوقت الملائم ليـزرع الألغام في مواقع محددة في المنطقة المحرمة بحيث يعرفهـا هو ولا يعرفها الخصم، وكان جنودي قد زرعوا فـي تلـك الآونة – على عجل لغما مضادا للـدبابات وآخـر مضـادا للأفراد بالقرب من المنطقة التي وقع بها حادث كسر وقـف أطلاق النار.

وقفت مع بعض الجنود أعلى التل أرقب رد فعل الأمـم المتحدة من جهة والقيادة المصرية من جهة أخرى، حين بدأ العدو بإطلاق سيل من النيران في اتجاهنا من مدافع يحملهـا

أفراد ومدافع أخرى مثبتة في دشم محصنة، أمـا دبابـاتهم فكانت تبعد بمسافة زمنية عن المنطقـة. حينئـذ أصـدرت أوامري إلى طاقم الدبابات بإدارة ماكيناتها دون أن تتحـرك. ما إن سمع القائد الإسرائيلي صوت مواتير الـدبابات ورأى غبارها المتصاعد حتى كف عن إطلاق نيرانه على الفـور خشية أن تدك موقعه بمدافعها.

راح الجنود يلطمون خدودهم، ويهيلون التـراب علـى رءوسهم وهم يصرخون لهول الكارثة الموشكة على الوقوع، إذ تحركت عربة للأمم المتحدة من بداية المدق، تليها مدرعة إسرائيلية إم ١١٣، والاثنتان معرضتان للانفجار خلال ثوان معدودة.

أصحبت في غمضة عين مهددا بالمحاكمـة العسـكرية والإعدام رميا بالرصاص كخيل الحكومة الموبوءة، لتضـيع كل بطولات جنودي وتضحياتهم سدى!

وتكلمت إليك يا مولاي..

قلت لك أنني شرف مصر وكبرياؤها وكرامتهـا فـي الكيلو ١٠١، وإنني لم أبدأ بالعدوان بل دافعت عـن حريـة أرضي، وسألتك يا مولاي إن كنت أدافع عن باطل فلتنفجـر

عربة الأمم المتحدة بمن فيها حتى ألقى جزائي، وإن لم أكن على حق فإنني لن أتردد لحظة في عبور المنطقة المحرمـة والقتال إلى جانب إسرائيل.. أنت الحق يا مولاي وأنا أدافـع عن الحق فلا تخذلني.

حبست أنفاسي حين اقتربت عربة الأمم المتحـدة مـن البقعة الملغومة، ووضعت يدي على عيني وأذني، وجسـدي يرتعش، وقلبي ينتفض، والجنـود مـن حـولي يصـيحون كالمجانين، حتى مرت لحظة تساوي عمري كله حين نـزع جندي يدي بشدة من على وجهي وهو يصيح والجنـود مـن حوله مهللين متقافزين في فرحة طاغية:

الحمد لله... الله أكبر...

كانت عربة الأمم المتحدة قد تجاوزت منطقـة الخطـر واقتربت من موقعها دون أن تصطدم بأحد اللغمين بمعجزة أقوى من الحلم، ولم أكد أستعيد أنفاسي حتـى دوى انفجـار ناري هائل وانبطحنا جميعا على الرمال ولهيـب الانفجـار يتصاعد إلى السماء مخلفا حطام المدرعة الإسرائيلية.

استجبت لتضرعي يا مولاي ووهبتني عمرا جديدا بعد عمري الذي أفنيته في عصيانك.. فكيف لا أخجل من نفسي أمام كرمك ورحمتك؟

توقفت عربة الأمم المتحدة وكان بها ضابطان أجنبيان وضابطان مصريان كبيران.

نزل أحدهما مندفعا إلى موقعي وهو يصيح في غضب جامح:

- أين المجنون قائد هذه الوحدة؟

ثار الجنود وغلى الدم في عروقي، لكني تماسكت قدر إمكاني رغم شعوري بالظلم والإجحاف. لم أجبه بكلمة واحدة وإنما أشرت له بأصبعي إلى جثة القتيل الإسرائيلي داخل أرضنا، تهللت أساريره فجأة وأسرع في استدعاء ضابطي الأمم المتحدة اللذين عاينا موقع الجثة، وبذلك ثبت للعالم أن الإسرائيليين هم الذين بدءوا بكسر وقف إطلاق النار، وأننا لم نطلق النار إلا دفاعا عن النفس.

***

سيدي:

كان نادرا أن يقول له أحد يا أبي. قال لي وقد تمكن من ضبط انفعاله:

هذه ورقة وهذا قلم. اكتب لي كيف صرفتهم وأقسم أنني سأعطيك مثلهم مرة أخرى.

في القاهرة وعلى مدى يومين فقط أنفقـت مصـروفات التحاقي بإحدى الكليات وإقامتي وتنقلاتي على الأصدقاء، ثم مررت على خالي واقترضت منه مبلغا إضافيا أنفقتـه فـي اليوم الثالث.

اكتب يا أحمد وكف عن البكاء.

لم أكتب شيئا، وكان أبي عائدا لتوه من البلد حين أبلغته أمي بفعلتي.. لم يضع حقيبة سـفره علـى الأرض. قـرر الرجوع إلى البلد على الفور رغم إنهاكه الشـديد واحتياجـه الضروري للنوم.

سألته أمي في لهفة.

- إلى أين يا سيد؟
- عائد من حيث جئت.
- ألا تستريح قليلا؟ ألا تأكل؟

- هذا أفضل من أن أمد يدي عليه.

اندفعت نحوه متوسلا بتقبيل يده:

- اضربني يا سيدي ولا تمش.

قال بحب زاده الغضب جمالا:

- لا أستطيع يا أحمد.

***

وعدت يوما أترنح من سطوة الخمر قرب الفجر فرآني لسوء حظي وهو يستعد للصلاة. توقعت أن يطردني من جنته لكنه اكتفى بشم فمي ولحظني بنظرة كاوية واستعاذ بالله من الشيطان وانصرف عني كما لو كنت وهما.

اعتكفت في غرفتي لأيام عديدة خشية مواجهته وإذا به يطرق بابي يوما:

- يا بني أنت حر في معاقبتك لنفسك، لكن هل تريد معاقبتي أنا الآخر؟

- كيف يا سيدي؟

- أنت تعلم أنني أحب مجالستك والحديث معك.

- بالطبع يا سيدي.

- فلماذا تحبس نفسك عني.

***

أثناء الحرب كان جنودي يكتبون له الرسائل نيابة عني؛ إذ خشيت الإمساك بالقلم لحظة واحدة لأكتب إلى أحب الناس فتدهمني العاطفة حيث لا موقع لها حينذاك ولا مجال.

لم أكن أعرف أنه أصيب بشلل هستيري طـوال فتـرة غيابي لأني لم أكتب له خطابا واحدا، بل إننـي لـم أفـتح خطاباته أو خطابات أخوتي وأخواتي. كنت قد سلمت روحي للقتال فلم أجد معنى ولا سببا يدفعني إلـى أدنـى اتصـال وجداني بأحد قبل أن أنهي مهمتي المقدسة.

وحين عدت في إجازة خاطفة مفاجئة، ذهـل الجميـع لرؤية سيدي يقفز من الفراش الطائر نحوي يعانقني ويبكـي مرددا اسمي مربتا على صدري وظهري. أما شـقيقتي فلـم تتردد في تمزيق سترتي حتى تتأكد أن جسـدي خـال مـن الإصابات.. أذهلتني شراسة المرأة حين تحب فيتهدد حبهـا بالضياع.

عيالي

تفشت الفرحة بين الجنود حين علموا بزيارة قائد اللواء لوحدتنا كي يعبر لهم عن امتنان القيادة وتقديرها الشديد للأعمال البطولية الانتحارية التي قاموا بها، والتي جعلت القائد الإسرائيلي يطلب لقائي للتعارف بي، وللتفاخر بأنه اشترك في القتال ضد رجالي.

جمعت القوة واصطفوا حاملين أسلحتهم وراح قائد اللواء، يتفقد الوحدة. فوجئت بسحنته تنقلب في غضب مفاجئ وهو يشير إلى ملابس الجنود المهترئة ولحاهم الطويلة وشعورهم الكثيفة، قائلا في سخرية غثة:

- عساكرك هيبيز يا حضرة الضابط؟

انتقلت الصدمة كالوباء بين الجمع ابتداء مني وانتهاء بأحدث جندي في القوة.. ماذا أقول لهذا المغرور المنتفخ الذي يتناسى بطولات الرجال ويتحدث عن شعر رءوسهم وذقونهم؟.. أسالك يا مولاي إنابة لا رجعة فيها ولا جور يا مصلح الصالحين ويا هادي المضلين ويا أرحم الراحمين

- يا فندم الرجال حاربوا ولم يكن لـديهم الوقـت ولا الأدوات لتصفيف شعورهم؟

- كنت أحسب أن قوتك منتقاة من خيرة جنود مصـر ليمثلوها في الكيلو ١٠١

سامحني يا مولاي فأنا عاجز عن كظم غيظي:

- يا فندم رائحة سيادتك تفوح بالعطر وياقتـك منشـاة وذقنك حليق لأنك...

قاطعني بغضب جارف:

- ماذا تقول يا حضرة الضابط؟

رأيت الإحباط والدهشة والغضب المكتوم على وجـوه الجنود فقلت له بحدة:

- أقول أنك لو حاربت مثلهم لمـا أبـديت مثـل هـذه الملاحظة.

لم يكد يكشر عن أنيابه ويفكر في وسيلة لإيذائي حتـى أصاب أحد الجنود صرع مفاجئ وراح يصرخ حتى سـقط مغشيا عليه.. وما كان من الجندي الواقف من خلفي – وكان أشدهم تعلقا بي – إلا أن رفع رشاشه وراح يجـري وهـو يطلق وابلا من النيران على الإسرائيليين وهـو فـي حالـة

هستيرية لم يجد باطنُه بديلا عنها لتفجير طاقة السخط المنضغطة في صدره وصدري وصدور إخوانه الجنود المصدومين في قائدهم الأعلى.

في لمح البصر انهال علينا سيل من طلقات المدافع والرشاشات من الموقع الإسرائيلي وإذا بالقائد يجري بسرعة البرق ليلقي بنفسه في أقرب حفرة وهو يصيح بلا وعي قائلا:

عيالي.. عيالي...

تبادلنا معهم القصف على فترات متقطعة. سألني بنبرة ضعيفة وهو ملتصق بي في الحفرة:

- كيف أصل إلى قيادة الموقع؟

- تزحف يا فندم.

وزحف أمام الجنود، وفي أسماعه ترن كلماتي الموجعة:

- عيالك في البيت يا خويا.. هنا يحارب رجالك الهيبيز!

وحين هدأ الجو وغادر الموقع كان حزينا وكانت كلماته مسالمة. احتضنني وعبر عن إعجابه بشـجاعتي ورجولـة عساكري.

لكنك وحدك عليم بخبايا القلوب، فمن أين لي أن أعلم ما حبسه في قلبه لي من ضغينة وبغضاء؟

***

الخروج والدخول

حين صدرت نشرة بأسماء الضباط والصـف والجنـود الذين قاموا بأعمال بطولية غير عادية والحاصلين على نجمة سيناء، لم يكن اسمي بينهم.

في تلك اللحظة قررت أن أترك الجيش وكان قـرارا لا رجعة فيه. جن قائد الكتيبة غيظا لما وقع علي من ظلم؛ فأخذ دفتر سير حوادث الكتيبـة ودفتـر سـير حـوادث اللـواء وعرضهما على قائد الجيش الثالث متخطيا قيادته المباشرة.

بعد أن انتهى قائد الجيش من قراءة سير الأحداث أصدر أمرا بمنحي نوط الشجاعة من الطبقة الأولى، وصـدر هـذا الأمر في نشرة مستقلة منفصلة تحمل اسمي فقط.

رغم ذلك لم أتراجع عن قراري، وكيف لي أن أتراجع فأبتعد عنك وأنا أنشد القرب والوصال؟

إني قادم إليك فافتح لي رحابك وامنن علـي بالإيمـان والمحبة والتوحيد والطاعة.

كيف لي أن أتراجع وسؤال قائد الكتيبة يرن صداه فـي أذني حتى اليوم:

- هل أخرجت الزكاة يا جدار؟

تعجبت لسؤاله وأجبته دون أن أخفي دهشتي:

- لا.. لم أخرجها بعد.

فعاود سؤالي:

- هل دعوت لنفسك في ليلة القدر بالأمس؟

- لا.. لم هذه الأسئلة المحرجة؟

- أردت فقط أن أطمئنك إلى أنـك أخرجـت زكاتـك وأقمت دعاءك.

- كيف؟

لقد أطعمت بالأمس خمسمائة جندي فـدعا لـك مـنهم عشرة على الأقل.

يا مولاي لقد أحاطت بي الغفلة والمعصـية والشـهوة وبهرتني الدنيا، فاستجب بكرمك لـدعاء هـؤلاء البسـطاء وأيدني بالمحبة في محل التفرد والوحدة وأنبت علي أشـجار اللطف والحنان وأدخلني مقام قربك فإنـك أنـت الله الملـك المنان.

وخرجت من الجيش لأجد أرضي مسروقة.. سرقها من استرددت لهم صواريخهم المصرية التـي سـرقها اليهـود. أمضيت أربع ساعات أصطلي وجنودي بنيران العدو حتـى استخلصنا صواريخنا من أنياب الموت... ثم يسرقون أرضي وأرض أجدادي.

بعد السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق.

لم أكن أتصور بعد استقالتي من الجيش أن يمـر عـام وراء عام، وأنا عاجز عن استرداد أرضي بقـوة القـانون، غارق في القضايا والملفات والمحاكم والمحـامين، تعجبـت كيف يكون هذا حالي وأنا متفـرغ للـدفاع عـن أرضـي، وتساءلت ماذا كانوا سيفعلون بي وبأسرتي لو بقيت بالجيش.

قال لي صديق وهو يرى أعصابي تتآكل أمامه:

- ارحم نفسك يا أحمد.

- الرحمن هو الله.

- إن أعباء القضايا التي تحملها وحدك جديرة بمؤسسة لا بفرد واحد

- الله معي.

- نعم، لكنك بحاجة إلى أن تريح أعصابك حتى تستطيع الصمود.

- حقا أنا بحاجة ماسة إلى الخلوة.

- فر بجلدك إلى فرنسا. أمريكا. إسبانيا.. أو أي مكان آخر.

بل إني فار إليك يا مولاي وبرحمتك أستغيث.

- معك حق، لكني سأسافر إلى المكان الذي سيعيد إلي سكينتي

- إلى أين.

****

لم تقس علي في ابتلاءاتك يا مولاي؟.. ألهذه الدرجـة تحبني؟

أعرابية ما رأيت جمالا كجمالها، وما فتنتني نظرات كنظراتها. أي سر ذلك الذي جاء بها يا ربي لتسكن بالغرفة المجاورة لغرفتي في البيت الذي أسكننا به المطوف؟

ذكاء ملتهب يشع من عينيها القاتلتين. مطاردة لا رحمه فيها تجعل الحديد يلين.

يا سيدتي لا تجهدي نفسك وتجهديني معك فأنا أعلم أنك رسول الشيطان يجيئني في مقتل حتى يقطع علي الطريق إلى مولاي إلى الأبد.. ولكن كيف أهرب؟

قالت إنها غير سعيدة بزواجها، وإنها تمتلك في مصر قصرا كبيرا، وإن زوجها يخشاها ولا يستطيع أن يرفض لها طلبا.. الهمني الرشد يا مولاي وقني شر نفسي.

قالت إنها مستعدة لأن تستضيفني بعد العمرة في أفخم فنادق القاهرة للمدة التي أشتهيها..

اللهم اكفني بحلالك عن حرامك.. ولكن أين حلالي هذا وأنا عاجز عن العثور حتى اليوم على زوجة صالحة؟؟

هربت من البيت إلى بيتك أحتمي بك من ابتلائك الرهيب.. ﴿يوسفُ أعرض عن هذَا واستَغْفِري لِذَنْبِكِ إِنكِ كُنْتِ مِن الْخَاطِئِين﴾... أفطر في المسجد على تمرتين أو

ثلاث وأشرب من ماء زمزم، ثم أصلي المغرب ثم العشاء والتراويح والتهجد حتى الثانية والنصف صباحا. حيئنذ فقط أتناول وجبة هي الإفطار والسحور معا حتى أضمن الانفلات من المطاردة حين أعود إلى البيت منهكًا، منهوما إلى النوم.

ورغم ذلك فإنها أصرت على انتظاري ذات يوم. بعثت بصبي يناديني قائلا إنها تحتاج إلي في أمر جوهري. صرفت الصبي ورحت استعيذ بك من الشيطان بلا توقف، ويا لإصرارها وجرأتها إذ جاءت بنفسها تطرق بابي، حتى أنني تساءلت ذاهلا لماذا أتت هذه المرأة إلى الأراضي المقدسة؟

كانت نصيحة أبي هي رائدي ودليلي في التعامل مع المرأة..."المرأة في أي مكان وزمان يا أحمد هي أختك أو أمك أو ابنتك.. لا تتعامل إلا من هذا المنطلق حتى يأذن الله فتكون زوجتك وحليلتك"

صحيح أنني تناسيت نصيحة سيدي طوال سني الغفلة.. لكني لم أتردد حتى حين تكررت الطرقات بعصبية، وتوسل، وعناء، وجنون، ورجاء، ولم أفتح لها الباب! فآه من بعد السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق.

***

أجاويد الشيخ حمودة أبو الحمد

أستغفرك يا مولاي فقد عزمت على ألا أترك وسيلة على وجه الأرض دون أن أطرق بابها لأسترد أرضي من الأوغاد... وقيل لي إن الشيخ حمودة رجل مبارك لا يتعامل إلا مع الأجاويد وأنه لا يتقاضى المال أو الهدايا للقاء كشفه عما مضى من غيب عن الشاكي، أما غيب المستقبل فإنه يستعيذ بالله من ادعاء معرفته أو محاولة معرفته، فكل أجاويده جن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، وبالتالي فهم مؤمنون بالغيب موقنون أنه من شأن الله وحده.

ترددت مرارا على ذقنه المثلثة وأسنانه الطويلة وعينيه اللامعتين وابتسامته الغامضة والبخور يتصاعد من حولنا في حلقات. لا وسيط ولا حجاب بيننا، يسألني وأجيب ثم يأمرني بالصمت ويبدأ في حوار جانبي مع أجاويده وكأنه يراهم بالفعل.

بررت لنفسي اللجوء إليه بأنه سبب من جهـة، وبـأن الأجاويد مؤمنون من جهة أخرى.

قالوا له إن أعمالاً شريرة لا حصر لها تحول بيني وبين أرضي، وإن أعدائي وخصومي يستأجرون عتـاة السـحرة ليعقدوا لي هذه الأعمال.

- والحل يا عم الشيخ؟
- لا مفر من إبطال مفعول هذه الأعمال.
- البركة في كراماتك
- كراماتي ملك للكافة، أما التكلفة فتخصك وحدك.
- أنفق كل ما أملك لأسترد أرضي.
- على بركة الله.

***

المباحث

ما إن أتاح الزبانية الفرصة لسيد بسـيوني أن يتعطـل تنفيذ الحكم لصالحهم حتى سارع بإجراء عقود بيـع لقطـع متناثرة من الأرض إلى بعض ذوي النفوذ والسلطة من بينهم

ضابط مباحث من أبناء أحد السماسـرة بالمنطقـة، عـرف بالصفاقة والبلطجة، ولقد علمت فيما بعد أن هذا الضابط قال له:

- أحلق شاربي لو صمد آل جدار أمامي أسبوعين.

هأنا صامد يا مولاي منذ عشرين عاما..

كنت أستأجر في الصيف بعضا من طلبة المعهد الديني بفوة للقيام بأعمال البناء والنجارة في القطاع الذي احتله مـن أرضي، والمقام عليه بيت من طابق واحد يقيم فيـه أشـرف ومن معه من رجال.

في الشتاء يعود هؤلاء الطلبة إلى دارستهم وقد تمكنـوا من تدبير نفقات عامهم الدراسي الجديد.. وقليلا ما كنت أقيم في هذا البيت لارتباطي الروحاني الشديد بمنفاي الاختيـاري في العجمي.. فيلا من طابقين محاطة بحديقة عامرة بثمـار العنب والجوافة والبشملة.

في النهار تحوم من فوقها العصافير المسبحة بحمد الله، وفي الليل يسكنها الصمت والوحـدة لا يبـدد وحشـتها ألا تلاوتي التي لا تنقطع للقرآن الكريم.

قطع على أشرف خلوتي ذات ليلة ليخبرنـي باختفـاء ثلاثة من طلبة المعهد الديني. قال إن ضابط المباحث حضر بعربة الشرطة ومعه أبوه وبعض المخبرين اختطفوا الطلبـة واتجهوا بهم ناحية الفيلا التي تخص أسرة الضابط.

في قسم الشـرطة أبلغـت الضـابط المخـتص بمـا حدث.."ادعى لي شاب يدرس بكلية الشرطة أنهم يقولون لهم هناك أن يضربوا من يشاءون بالحذاء حتى لو كـان أسـتاذا بالجامعة"...

كان رد فعله مؤكدا لتواطئه مع زميله ضابط المباحث، إذ ادعى أنه لا يصدق ما يسمع.

أنذرته باللجوء إلى مدير الأمن ما لم يتحرك على الفور لإنقاذ الشباب، تمادى في عنجهيته ولم يتحرك من مقعده.

نفذت إنذاري وحين عدت إلى الفـيلا وجـدت الأولاد الثلاثة مكومين في ركن بالحديقة يرتعدون من الذعر والبرد، حتى أنهم فروا هاربين من شبحي في أرجاء الحديقة قبل أن يعرفوا ملامحي في ظلمة الليل.

كانت آثار الضرب بادية على وجوههم وعلى الجـروح المتناثرة على أبدانهم أصابتني قشـعريرة جعلتنـي أنـتفض تقززا لشدة الوحشية التي عومل بها هؤلاء المساكين.

لقد انهال الضابط وأبوه على الأولاد ضـربا بالأيـادي والعصي والأقدام لمجرد أنهم يعملون في أرضي. بعد ذلـك كتفاهم بالحبال وحبساهم في دورة مياه عفنة، حـين حضـر الضابط الذي سمعوه يتحاور مع زميله طالبا منه أن يفـرج عنهم بأمر مدير الأمن. سمعوهما أيضا يتبـادلان القفشـات والضحكات حتى انصرف الضابط على وعد من زميل مهنته بأن يعيد الأولاد بنفسه إلى أرض العامرية بعد أن ينتهي من آخر جولة تأديبية لهم.

كان الأب السمسار العجوز أشد قسوة من ابنه الضـابط الشاب في البطش بضحاياه الابرياء.. وضعاهم في عربة نقل صغيرة وانطلقا بهم غربا في عمق الصحراء حيث القيا بهـم في مقلب زبالة بعيد لا يرتاده إلا الذئاب والعقارب والكـلاب المتوحشة ومطاريد المخدرات وقطاع الطـرق، ولا يعـرف مكانه إلا سائقو عربات القمامة الكبيـرة الـذين يحضـرون لتفريغها به على دورات ليلية متعاقبة.

قال أحدهم لوكيل النيابة وقد استحالت رعشة جسده من الخوف إلى الغضب:

"كنت عاجزا عن تحريك جسدي رغم إحساسي بالقذارة والنتن من حولي، وبحركة حشرات لا أتبينها فوق جسـدي. لقد ضرباني بلا رحمة دون ذنب يا فندم وصـرخت فزعـا حين جاءتنا النجدة الإلهية بقدوم عربة قمامة ضخمة لتفريـغ محتوياتها فوق رءوسنا تماما. إذ كان الظلام دامسا، وكـان من المستحيل على السائق أن يتصور وجود آدميين في قلب هذه النفايات المتخمرة وفي تلك المنطقة الصحراوية النائيـة الموحشة. ازداد صراخي حين اقتربـت إطـارات العربـة الرهيبة من جسدي ولامسته بالفعل. ولكن أراد العزيز الكريم أن يتوقف السائق عن تحريكها وجسدي ملتصق تماما بإطار العربة الخلفي"

حين وصل بهم السائق إلى مركز تجمع عربات القمامة في محطة مصر، كان مصرا على اصطحاب بعض زملائه والعودة إلى بيت الضابط وأبيه للفتك بهما، ولم يكـن أمـام الأولاد إلا أن يهربوا من كارثة جديدة هم في غنـى عنهـا، واثقين من أنني كفيل بأمرهم بإذن الله.

ورغم قرار وزير الداخلية بتشكيل لجنة كبرى للتحقيق في أمر واقعة الاختطاف إلا أن ثقتي بأحكام البشر مهزوزة.. ولحظة أذان الظهر قلت لك يا مولاي إنني لن أرتضي إلا بحكمك فثقتي بعدالتك لا حدود لها.

أصدرت الأسباب حكمها بسجن الضابط وأبيه ثلاثة أشهر؛ فقلت لعله يكون حكما رادعا لهؤلاء الضباط الموهومين بأنهم على درجة طينية أكثر علوا ونقاء من إخوانهم المدنيين حتى أنهم يعاملونهم معاملة السيد المتجبر للعبد المسكين.

فدادين الشيخ حمودة أبو الحمد:

استغرقت المسألة من وقتي شهرا ومن جيبي ثلاثة آلاف جنيه، وعندما فتحت جريدة الصباح وجدت صورته تحت عنوان بالنبط العريض (الدجال) وانهال الصحافي سخرية من الجهلاء الذين تعاملوا معه فابتزهم وسخرهم لخدمته ولم يحقق لهم إلا ما تحقق بمحض المصادفة فقلت لنفسي إنني جدير بخيبتي وانقطاع أملي لأنني أستحق ذلك بالفعل.

وكدت أطوي الجريدة لولا أن لفت نظري بيان بحصـر ممتلكات الدجال وإذ بي ألمح ضمن الحصـر سـتة أفدنـة بالعامرية في نطاق أرضي المسروقة!

ولما أخرجه كبار القوم من سجنه عاد إلى صـومعته، ولم أتردد كثيرا في معاودة اللجوء إليه مرة ثانية، لكنه ادعى أنه لا يعرفني وأنه لم يسبق له أن رآني من قبل وتظـاهرت أنه لم يعد يتعامل مع الأجاويد إلا في خدمة أهله وأصـدقائه المقربين فقط.

وكانت غرفته عبقة برائحة الحشيش.

***

أدبني يا مولاي:

خسائري في دنياي تتزايد يا مولاي، ولكن ﴿عسى ربنَا أَن يبدِلَنَا خَيرا مِنْها إِنا إِلَى ربنَا راغِبون﴾

في شهر رمضان من أحد الأعوام الفائتة بـلا معنـى جاءني الدكتور شوكت، جار قديم للأسرة لم أسمع عنه شيئا منذ سنوات عديدة، ما إن رأيته حتى تذكرت حكمتـه التـي أتحفني بها في صباي "أن أبتعد قدر أماكني عن المرأة؛ فهي أصل كل سوء ومبعث كل رذيلة".

كنت أتشكك في صدق حكمته كلما رأيت"ميرفت"؛ فمن غير المعقول أن تعرف الملائكة الرذيلة، أو أن يأتي السوء من ملاك هبط إلى الأرض عن طريق الخطأ، وكان من المستحيل أن أبادلها الحديث أو حتى مجرد التحية لأنها من نور وأنا من طين فكيف يتفق النقيضان؟؟

كنت فقط أحلم بها كما أشاء. أطير معها في السماوات وأهبط بها في الحدائق الشاسعة والجنان الخضراء.. هواؤنا معطر وأنفاسنا ملونة وحياتنا عشق ونشوة وهيام.. أراها في رداء أبيض وجناحين رقيقين. على رأسها تاج وردي تخلعه حين تجالسني وتعضه أمامي. يفوح عبيرها في المكان وأنظر إلى شعرها الطويل الناعم وإلى عينيها الزرقاوين في وله لا أقوى عليه في صحوي أو منامي، فيدور رأسي وتأخذني النشوة إلى السماوات العلى، حينئذ فقط أجرؤ على مبادلتها الحديث ومطارحتها الهوى والغرام.

لم أكن أعرف أن الدكتور شوكت صديق للسيد بسيوني إلا بعد أن صرح لي قائلا:

- آن الأوان يا حاج أحمد لحل النزاع بينكما سلميا.

تذكرت المحاولة القديمة للمأمور ذي الأسنان الصفراء والتي نفرت منها في بداية الصراع، كانت عيناه تشعان بالانتهازية والتآمر، أما هذا الرجل فيبدو – والله أعلم – أنه حسن النية وليس صاحب مصلحة، فلم لا أجرب؟

- وأنا لست أحب الحرب.
- لنتفق على موعد نلتقي فيه ثلاثتنا.
- على بركة الله.

ويا فرحة عمري يوم ابتسمت لي ميرفت وهي تمر من أمامي في حياء.. ويا لروعة الكون وجمال مخلوقات الله من إنس وجن وحيوان ونبات وجماد، حين كان حياؤها المثير يبهرني فيضاعف من عجزي عن مواجهتها. وعندما أصافحها فكأنني أصافح روحا لا أصابع كف من دم ولحم وأعصاب. أكاد لا أرفع عيني في وجهها حتى لا تتضرج وجنتها بحمرة الخجل والانفعال.

ولطالما كتبت في حبها القصائد والرسائل الملتهبة بنار الوجد، ولم أجرؤ على إعطائها واحدة منها، كنت على قناعة من أن الكلمات المكتوبة وحتى المنطوقة لن توفيها حقها من التعبير الحقيقي لحبي الجارف لها.

- نلتقي في فندق شيراتون على مائدة السيد الخاصة.

- المسألة أكبر من النقاش حول مكان الاجتماع.

- أنا أفضل هذا المكان لأنهم يعرفون مزاج السيد في الشراب وهو لا يجيد الحوار بدونه.

ويا صدمة عمري يوم تعهد أبي – بحكم مقامه – أمام مأمور القسم بضمانها فسمح لها بالخروج من الحجز رغم التعليمات المشددة باستبقائها. كان أبي محبوبا في كل موقع يحل به: في البلد – في القاهرة. في الإسكندرية. في العامرية.. هناك حب إلهي يشع من وجهه على الناس فيحبونه على الفور، وهذا سر لم أفهمه إلا بعد فوات الأوان.

حين أخرج المأمور الصور الفوتوغرافية من درج مكتبه ليطلع عليه أبي الذي كان غارقا في ذهوله، منكرا بكل جوارحه لما يرى بعينيه، ألقيت بنظرة مختلسة عاجلة على إحدى هذه الصور فارتعشت ركبتاي واصطكت ضروسي وسرت في جسدي قشعريرة لم تتكرر في حياتي حتى الآن وسقطت متشنجا على الأرض.

بعد قليل خرج أبي مصطحبا ميرفت إلى أسرتها منكسة الرأس.. وفي البيت ربت على كتفي بحنان وعاتبني على

ذلك الانهيار غير المبرر والذي يبدو أنـه أزعجـه كثيـرا. حدثني عن صور ميرفت الفاضحة التي أكدت تعاملهـا مـع شبكة دعارة يديرها يهودي أمريكي يعيش متنقلا بين مصـر ولبنان.

- يشرب في رمضان؟

- وفي أي وقت.

- لكني لم أعد أرتاد هذه الأماكن لا في رمضـان ولا في غيره من الشهور.

- نؤجل اللقاء إلى ما بعد العيد.

- ليكن في عيادتك لو لم يكن لديك مانع.

- اتفقنا، وسوف أحدد لك اليوم والساعة بعد انصـراف المرضى.

حدثني أبي عن المرأة الأخـت والمـرأة الأم والمـرأة الزوجة والمرأة زوجة الصديق.

قال لي كلاما جميلا عنها يفيض بـالمودة والاحتـرام والحنان تمنيت أن أكن مثل تلك المشاعر الرائعة نحو المرأة، لكن صور ميرفت الفاضحة لم تترك لـي الخيـار، فتأجـل اعترافي بما يقول أبي لأعوام طويلة.

الذي حدث أنني منذ ذلك اليوم شربت جرعة مكثفة من دم الواقع، فما إن صرت شابا حتى انطلقت في عـالم الليـل أصول وأجول وأنفق المال بغير حساب لإشباع شهواتي التي لم تتوقف عند حد. أتبارى مع أندادي في القدرة على تعاطي الموبقات حتى الصباح دون أن أفقد وعيي.

تهافتت علي النساء من أرقى المستويات الاجتماعيـة. صار اسمي علما في أماكن اللهو الكبرى. الكل يتـودد إلـي ويتباهى بحضور مجلسي ومشاركتي العبث والعنف والمجون والبذخ، لم أكن أطيق معاشرة امرأة لأكثر من يومين أو ثلاثة حتى أملها فأختلق الوسيلة كي أقصيها فجأة عن حياتي إلـى الأبد...

فيما عدا دليلة فهي الوحيدة التي نجحت في الاسـتحواذ على عقلي وجسدي لأشـهر متتاليـة؛ إذ جعلتنـي اسـتمتع بمسرحية تمثيلية تتجدد فصولها يوما بعد يوم. ولما صارحتها بضرورة أن ترحل عني توسلت إلي أن تبقى عنـدي ولـو كجارية تخدمني مع العشيقة الجديدة التي لا مفر آتيـة عـن قريب.

ولحسن حظي أن سارعت دليلة بحسم موقفي منها حين تضامنت مع بعض السكان – دون علمي – ورفعوا قضـية ضد صاحبة البيت التي تؤجر شققه مفروشة مطالبين إياهـا أن تحرر لهم عقود إيجار رسمية. حين علمت بذلك طردتها وسلمت الشقة لصاحبتها على الفور؛ فانهار أساس القضـية وجاءتني صاحبة البيت تشكرني قائلة:

كنت أعلم أنك ابن نـاس وأنـك لا ترضـى بـالظلم والخيانة.. الله يهديك يا بني.

قال السيد بسيوني بمخارج حروف تثير التقـزز، وفـم يفوح برائحة الخمر:

- أنا الآن تلميذ يرتدي مريلة فـي مدرسـة الـدكتور شوكت فهل تقبل أن تلبس مريلة مثلي لنتحدث في رعايته.

- كان محاميه يجلس معه، وكنت معـي بجلالتـك يـا مولاي فقلت له: - أنا أتحدث في رعاية الله.

قال السيد وهو يعلم أنه كذاب فاجر.

- لقد اشتريت الفدان الواحد بمائة جنيه من الأعراب.

اندفع الدكتور شـوكت قـائلا دون الرجـوع إلـي أو مشورتي أو سماع وجهة نظري:

- إذن يدفع لك سيد باشا خمسمائة جنيه عن الفدان ويا دار ما دخلك شر.

غلى الدم فـي شـراييني وتـذكرت أسـنان المـأمور الصفراء، وأيقنت أنها مؤامرة يلعب فيها جارنا القـديم دورا حقيرا كشأن كل أعوان سيد بسيوني وزبانيته. قـدمت لنـا الممرضة القهوة وقلت كاظما غيظي:

- لعلك تذكر يا سيد بك أنك أرسلت محاميك هذا نفسه لشراء الأرض من والدتي ولما رفضت شراءها بالسعر الذي تستحقه فعلا، قررت وضع يدك عليها من خلال السماسـرة والأعراب لتشتري أوراقها بملاليم.

- لا داعي للحديث فيما مضى.

أيده الدكتور شوكت القادم مـن المجهـول قـائلا لـي بابتسامة صفراء:

- نحن نتحدث عن المستقبل. ما رأيك فيما عرضت؟

الآن يسألني النذل.

- رأيي أنني اكتفيت باللقاء والتعارف، فأنتم معلمـون كبار وأنا رجل لا أفهم في"المعلمة" ولن يكون بيني وبيـنكم إلا القضاء.

في وقاحة سافرة قال سيد بسيوني:

- أنا عارف أنها أرضكم ولن أتركها إلا علـى جثتـي وعليك باستلام ثمنها من المحاكم بعد عشرين سنة.

أذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان يا مولاي..

- أتقبل هذا على نفسك وأولادك؟

أنا وزوجتي لا ننجب، وأعلى ما في خيلك اركبه، فكل الرءوس الكبيرة في جيبي، وسرعان ما سوف تأتي صاغرا لتقبل ما أقرره.

قلت بثبات أمددتني به يا مولاي:

- وأنا تارك عندك وديعة وسوف أتسلمها بإذن الله ولو بعد عشرين عاما. واصل استفزازه وهو يضحك ساخرا:

- لقد ذهبت إلى الوزير فهل أعطاك مترا من الأرض؟

- العاطي هو الله.

- فلتعلم يا عزيزي أنه ما إن غادرت مكتبه حتى اتصل بي ليخبرني بزيارتك.

- من هذا الذي اتصل بك؟

- الوزير.

- عظيم.. فماذا عن ربه؟

وطلبتني للقائك حين انطلق الأذان بصلاة العشاء بمجرد انصرافي. فعجلت بالذهاب إلى أقرب مسجد.

بعد الصلاة فكرت أن أعود إلى الدكتور شوكت لألومه على موقفه أو حتى لمجرد التعليق على اللقاء الذي دبره حتى أعمل فراستي في خطوط وجهه، وكان سـيد بسـيوني قـد انصرف منذ فض اللقاء.

كان باب العيادة مواربا عن طريق سهو دبرته الأقدار. دخلت دون أن يشعر بي أحد، تحف بي نواياي الحسنة مـن كل جانب. لم أجد بالصالة أحدا. فتحت باب غرفة الكشـف لأجد الدكتور شوكت منكبا على الممرضة يقبلها فـي لهفـة كلب مسعور على قطعة من اللحم. كدت أتقيأ ما بجوفي من طعام وغادرت المكان على الفور.

كانت حكمته القديمة تتردد في مسـامعي بقـوة، تلـك الحكمة التي جعلتني أدمن الاستمتاع بكل لحظة في جاهليتي حتى النخاع... وأجد في الملذات السلوى عن خسائري فـي عملي وفي بيتي وفي ابنتي وفي الأصدقاء.. كان الملل يستبد بي أحيانا فيزداد سخطي على نفسي وعلى من حولي فأشعر باختناق قاتل، ورغم ذلك أعود من جديد إلى حيـاة الليـل.

أعيشها كما لم يعشها أحد، مستمرئا أفانين اللهو كافة، مضيفا إليها من خبرتي الجديد والجديد، حتى لا أترك نفسي فريسة للملال لحظة واحدة.

إني أخافك اليوم ولا أخافهم. اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم. إني راض بعقابك الدنيوي الأليم. راض بالوقوع بين أيادي خونة يستنزفون مالي وجهدي وصحتي وعمري. راض بهذا كله حتى ترضى عني وتكفر عن سيئاتي.. فبقدر غضبك القديم مني عاقبني يا مولاي.. أدبني يا مولاي.. ربني يا مولاي.. أنزل علي الهم والغم والكرب حتى تخفف عني الحكم في اليوم العظيم.

***

كبار القوم

مشيئتك يا مولاي سابقة لكل شيء..

حين ألحقت بوحدة عسكرية في أحد الموانئ المهجورة عرفت الصمت والوحدة والسكون لأول مرة. تأملت في ملكك يا ملك فانبهرت بما في هذه التجربة من جديد ومثير.

حياة شديدة الجفاف. عساكر فقراء أميون جبلوا على الطاعة والولاء. مناخ يتقلب بين الحرارة والبرودة. مساحة خضراء محدودة يحتضنها الجبل على المدى البعيد من كل جانب وكأنه يمدها بالحماية والحنان. ليل لا علاقة له بليل القاهرة والإسكندرية. أشم رائحة الخشب المحترق الذي يشعله الجنود للتدفئة فأشعر بسكينة غريبة على نفسي.

أستمع إلى ثرثراتهم الهامسة حول النار. تذهلني بساطة الموضوعات التي تشغلهم وسذاجتها. أتذكر آخر موعد لم يتحقق مع آخر امرأة التقيت بها. لم يجذبني إليها جمالها الفتان وإنما جذبني كبرياؤها العنيد الذي قررت إذلاله كي أحقق أقصى ما أبتغيه من متعة ونشوة.

التجاعيد البارزة المتشابكة على جبين المسنين من أهالى المنطقة البحرية كانت تشد انتباهي وتأملي في فكرة الزمن. لابد أنني سأتوب يوما لو حظيت برعايتك اولا ميرفت لتغير مسار حياتي تماما.

إن ما حققته حتى اليوم من رصيد المجون والعبث يكفي جيلا من الشباب حتى يبلغ شيخوخته، لكن ماذا أفعل بنفسي المتهابطة الظلماء وبئر الشهوة، حالكة السواد عميقة القرار.

خرير مياه الجدول القريب من معسكرنا يجذبني برفـق إلى عالم البراءة القديم الذي عشته قبـل ميرفـت. أسـراب الطيور المهاجرة إلى سماوات بعيدة مجهولة تشـد بصـري وبصيرتي إليك. أحملق في الشمس نهارا وفي القمر والنجوم ليلا كوثني قديم يبحث بفطرته عنك.

لم أستطع الصمود أمام جنوني المعتاد رغـم انبهـاري بروعة هذه الحياة الاستاتيكية الجديدة التي واجهتني بعظمتك. لم أتصور أن يخلو قلبي من العشق يا مولاي فالقلب الـذي يخلو من ألم العشق وروعته ليس قلبا، والجسد الذي لا يؤرقه القلب ليس إلا ماء وطينا.

توهمت أن حريتي هي انقيادي لأسر العشق بمسـراته وأحزانه٠. فجئت إليك وأنا العبد العاصي المذنب كي تنقذني مما أنا فيه من ضياع.. وكنت معي يا مولاي..

كنت معي حين جاءني رجل ذو نظارة سـوداء يحمـل حقيبة منتفخة ويقف على رأسي فجأة بغرفة مكتبي، قبـل أن أتساءل كيف يصل مدني إلى مثل هذا الموقع العسكري بتلك السهولة، فوجئت به يضع الحقيبة على مكتبي ويفتحهـا دون

أن ينبس بكلمة. هالني ما رأيت من"رزم" مكدسة من أوراق البنكنوت الكبيرة قال لي بابتسامة واثقة:

- ربع مليون جنيه يا باشا.

صرخت في وجهه:

- من أنت وكيف وصلت إلى هنا وما هذه الفلوس؟

وناديت الحارس النوبتجي بصوت أقرب إلـى الزئيـر حين جاءني متخاذلا قرأت في عينيه كيف ابتلعـه الرجـل، وصرفته على أن يكون حسابي له لاحقا.

قال ذو النظارة السوداء في برود قاتل:

- هدئ أعصابك يا باشا. المسألة لا تستدعي الشوشرة.

وحين أطلعني على سره؛ ألقيت بالحقيبة فـي صـدره واندفعت نحوه أضربه بقدمي في مؤخرته بينما يجري هاربا إلى الخارج وهو يصيح في ذهول:

- لا بد أنك مجنون. لابد أنك مجنون

قلت له متوعدا:

- لو عدت إلي مرة ثانية فسوف أجعل العساكر يقتلونك بصفة شرعية لاقتحامك الموقع. ومع إشراقه صـباح اليـوم التالي صدرت الأوامر بتحريك كتيبتي إلى الصعيد.

جلست إلى نفسي متـأملا أراجـع الأسـباب الحقيقيـة لامتناعي عن قبول رشوة يسيل لها لعاب غيـري، خاصـة وأنها تدفع نظير فعل يكاد يكون سـلبيا ولا يحملنـي أدنـى مسئولية. كل ما هو مطلوب ألا تعتـرض حراسـة المينـاء بوحدتي حمولة معينة تخص واحدا من كبار القوم.. وكبيـر قوم في يومنا هذا لا يعني إلا تاجر مخدرات، بغض النظـر عن منصبه الذي يستتر من خلفه فيما يفعل.. عرفت أنني لم أتقاض الرشوة لأن أبي علمني أن أكون شريفا أمينا لا خوفًا من الناس ولا إرضاء لهم ولكن لأنني غير جدير بأن أوصم بالوضاعة وخيانة الضمير. لم أتقاض الرشوة لأني أحبك يـا مولاي رغم انغماسي في معصيتك.. أما آن الأوان أن تطهر قلبي من أدران الغواية والهوى وتملؤه حتى الثمالة بنفحـات من المحبة تصلني بك وصلا لا ينقطع؟

***

ملاحظات لا يجوز إغفالها:

(١) كلما تذكرت قراري بالخروج من الجيش لم أندم عليه لحظة واحدة.

(٢) إن حب الشيء لا يزول إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتيادا.

(٣) التقيت في اليابس الثاني بالعديد من الشرفاء من رجال الشرطة والقضاء والجيش والقانون والنيابة، ولكن ما شأن القطرة في محيط؟... والتعميم ليس عدلا وإنما العدل هو الله.

***

الأحوال:

لو كنت قادرا على هداية نفسي لاهتديت إليك من زمن بعيد، فما أكثر اللحظات المصيرية التي أتاني فيها هاتفك ولم أستجب له. لكن توقيت المشيئة جاء مدهشا ومثيرا؛ إذ ترك الأبواب كافة ودخلني من باب التأمل.. الباب الذي يرضيني ويقنعني ويريح قلبي. ففي لحظة تكون الحياة حافلة بمجموعة من المسلمات الراسخة في العقل والروح، وفي لحظة أخرى أجدها خالية تماما من أي أثر لها.. وما بين اللحظتين أتقلب بين الدهشة والرضا وبين الذهول والقبول وبين الحزن والسرور.

رأيت أبي وقد استحال جسده العملاق في ختام رحلتـه إلى كومة من العضلات المرتخية، ثم مات فلم يعد له وجود في حياتي، بعد أن كان يملؤها بإشـراقة وجهـه البشـوش وكلماته الحلوة ودعواته الصادقة. ولقد ذهب بجسـده عنـي لكني استبقيت بشاشة روحه منذ لحظة وقوفي علـى حافـة المقبرة وهم يهيلون التراب على جسده.. فما الموت؟

قالت لي زوجة صديقي عن زوجها بلا حياء:

- إنه إنسان حقير شاذ.. خسارة أن تكون صديقه.

وكانا قد تزوجا عن حب، وأنجبا عن حب، وعاشا فـي حب.. مسلمات لم تهتز لحظة في خاطري.. فما الحياة؟

وقتل شاب أمه بأن ظل يطعنها في صـدرها بالسـكين بكل قوته وهي تفر منه متوسلة إليه أن يرحمها دون جدوى.. فمن هو الإنسان؟

وشاهدت أخي يسقط ميتا على الأرض وهو في عنفوان شبابه على أثر لكمة عادية من صديقه فـي مبـاراة وديـة للملاكمة. كان مثالا للجد والاستقامة وطهارة القلـب.. فلـم العناد والمكابرة؟

وأحبتني كل النساء اللاتي كذبت عليهن في جـاهليتي، أما التي صدقت معها وتزوجتها فلم تعرف كيـف تحبنـي. تركتها ومعها قطعة مني.. أحبك يا راوية، لكـن مـا هـو الحب؟

واختلاف الحكام فتحاربت الجيوش وقتل الشبان بعضـهم بعضا تحت رايات القانون والنظام والدولة والجيش والجهـاد والاستشهاد والسيادة والانتصار والشجاعة. ثم تصالح الحكام وتبادلوا الورود والقبلات والسجائر وصافح السادات جولـدا مائير ثم حصل مع بيجين على جائزة نوبل للسلام، وصـافح عرفات رابين وحصلا معا على نفس المكافأة وتساءل أهالي القتلى عن سبب قتل أبنائهم ولم يجـبهم أحـد فمـا جـدوى الحرب؟

وضاعت ثروة صديق فجأة ورأيته بعيني يتحايل في ذلة للحصول على ثمن وجبه الطعام لأسرته.. فما الحـظ وأيـن الاجتهاد والمثابرة؟

وكرست قريبة لي حياتها لزوجها وأبنائها وراعـت الله في كل ما فعلت فهجرها زوجها سعيا وراء داعرة لا قلـب

لها.. فما هو الإخلاص.. ومـا الخيانـة.. وأيـن راحـت المسلمات؟

أمسكت بالسارق، وعرفـت الراشـي، وأبلغـت عـن المرتشي، وحاربت المعتدي، ولم يتغير شيء.. فأين الأمان؟

كل شيء عولت عليه في حياتي – سواء أكان فكـرة أم شعورا أم كائنا بشريا – تبين لي أنه إما متغير وإما زائل.

لا ثابت في حياة كلها أغيار، ولا مفر من التسـليم لـك وحدك، فأنت الثابت الأوحد والقيوم المطلق.

قال لي رئيس أركان القوات المسلحة:

- تمهل يا جدار وأعد النظر في قرارك.

لم أشأ أن أقول له كيف أبقى بالجيش وقد خذلني.. كيف تتركون أرضي نهبا للصوص وتجار المخدرات يقتسـمونها فيما بينهم منذ يوم الثغرة وحتى انقضى عام بأكملـه دون أن أسترد منها شبرا واحدا. أين أنت الآن يا رئيس الأركان بعد عشرين عاما من ذلك اللقاء والحال باق على ما كان عليه بل إنه قد ازداد سوءا؟

قال لي بثقة:

- أنا أعلم بقضية الأرض، وما دام الأمر معروضا على القضاء فالجيش لا يمكنه أن يفعل شيئا.

إذن فعلي بالذهاب إلى من يفعل كل شيء.. بل يقول للشيء كن فيكون.. وإن كنت حقا أريد أرضي وأنا عاجز عن فهم معاني الموت والحياة والإنسان والحب والحرب والحظ والاجتهاد والمثابرة والإخلاص والخيانة والأمانة، وإن كنت حقا قد تعلمت أنه لا مسلمات في دنيا الأغيار، فلا بديل من الذهاب إليك.

اصطحبت سائقا خبيرا بمساجد القاهرة ومقامات أولياء الله الصالحين وأهل البيت.. أنا أعرف أن بابك مفتوح وأنه لا وساطة بين مخلوق وبينك لمن شاء أن يخرج إلى باب حضرتك.

أنا أعرف أنني أبدأ من درجة دنيا في مقامات التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والتوحيد والتوكل والمحبة والشوق والأنس والرضا والنية والإخلاص والصدق والفكر وذكر الموت وآلاف المقامات التي تجاوزها إلى جلالك السالكين.

ولأني أعرف أن درجتي دنيا ومطلبـي ديـن.. لأنـي أعرف أنك تحبني معرفة يقين فإني لجأت إلى مـن أحببـت أوليائك الصالحين لا من باب الوسـاطة وإنمـا مـن بـاب الاقتراب، ففي محبة المحبوب قرب من الحبيـب والمحبـة ثمرة المعرفة، وأنت الحبيب المطلق الذي يفعل مـا يشـاء ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

وقف السائق بعربته أمام مسجد السيدة زينـب ونزلنـا معا. على باب المسجد رأيت شيخا وقـورا أبـيض الوجـه والملبس والشعر والذقن والحاجبين، متطلعا إلي فـي لهفـة غريبة...

قدم نحوي بسرعة وهو يقول:

- أين أنت؟.. نحن ننتظرك من زمان.

تلفت من حولي لأبصر من يخاطبه هذا الشيخ فلم أجـد أحدا سواي. سألته في دهشة فائقة:

- أنا يا عم الشيخ؟

- نعم أنت.

دهش السائق أيضا فقال للشيخ بنبرة طافحة بالسخرية:

يا مولانا إنها أول مرة يزور فيها وليا في حياته.

قال له الشيخ بود وبشاشة:

- اسكت أنت.

ثم التفت إلي قائلا:

- لماذا تأخرت كثيرا؟.. ادخل إنها تريدك.

في لحظة ذهولي ودخولي انطلقت الزغاريد من حـولي وانتابني شعور بأنني مخلوق بلا جسد... هكذا فجـأة؟؟.. لا مسلمات أبدا فالتسليم لك وحدك.

بعد أن أنهيت صلاتي في جوار المقام رأيت رجلا مسنا يبكي بحرقة وينهنه بكلمات غير مفهومة، حين هـبط علـي الهاتف آمرا أياي أن أحتضن هذا الرجل وآخذه في صـدري ففعلت.

هل أنكر ما حدث؟....لا.... لقد شهق الرجـل ثـلاث مرات متتالية وكف عن البكاء وتبدل حزنه سكينة ورضـا.. هل أنكر ما حدث؟...لا... إنه راح يضحك من قلبه ويقبلني ثم انخرط في تعبده ووجدت نفسي أتسلل بعد احتلال قاعدة أم كتاف الحاكمة ومعي دورية الاستطلاع الليلـي لاستكشـاف الملاجئ الكائنة بأسفل القاعدة الحقيقية التي استقر بها اليهود، وحددت القيادة مدة العملية بساعات ثـلاث تشـمل الـذهاب

والاستكشاف والعودة. اكتشفنا حفرة كبيرة كانت مخصصة لعربة. نبهت على الجنود بأن يلقوا بأنفسهم فيها بمجرد أن تطلق علينا الكشافات أو النيران. وبدأنا في فحص الملاجئ. وجدناها مكدسة بصواريخ سام ٢، سام ٣ المحملة على عربات وكانت بلا حراسة فاليهود يخافون الليل ولا يحرسون إلا عن بعد.

حين اقتحمنا الملجأ الأخير اندفعت في وجوهنا مجموعة من الكلاب التي تذأبت من أكل لحوم الجثث مطلقة نباحا أشبه بالعواء المسعور، أعقبه سيل من الكشافات سلطت علينا من القاعدة، فطرنا بأجسادنا إلى الحفرة وكنا أحد عشر مقاتلا. تأخر جندي واحد عن اللحاق بنا فأدركته الكشافات.

وانطلقت علينا مدافع الدبابات. جحيم مستعر لم يتوقف طيلة أربع ساعات كاملة كانت كفيلة بالقضاء على معظم الكلاب وهروب بعضهم. كان الساتر الترابي للحفرة تجاههم فلم يصب فرد منا بسوء في حين تأكد اليهود أنهم أبادونا تماما. فكر البعض في الخروج من الحفرة والعودة إلى القاعدة بعد أن توقفت النيران فأصدرت أمرا بالبقاء... وبعد ربع ساعة أطلق اليهود قذيفة هاون مضيئة للتأكد من خلاء

المنطقة، وتعجبت لأنهم لم يستخدموا الهـاون الـذي كـان بإمكانه أصابتنا في الصميم رغم أنهم محترفون في استخدام هذا السلاح. ساد صمت طويل وبدأ الجنود يستعدون للخروج فنهيتهم للمرة الثانية وإذا بقذيفة هاون مضيئة أخرى تنطلـق تجاهنا بعد نصف ساعة من الصمت. لست أدري لماذا جلجل صوت أم كلثوم في أذني في تلك اللحظات الحالكة منبعثا من سرداب الماضي وهي تغني:

يقظة طاحت بأحلام الكرى. وتولى الليل والليل صديق.

وإذا النور نذير طالع.. وإذا الفجر مطل كالحريق.

أي عبث هذا الذي يدعوني إلى تذكر قصيدة غنائية في وقت تظن فيه القيادة أننا انتهينا عن آخرنا وقد مضى علـى موعد انتهاء العملية أكثر من ساعة.

جاءني الهاتف باعثا في كياني قشعريرة غريبة دون أن يهمس لي بشيء فأصدرت أوامري للجنود بـالخروج مـن الحفرة وعدنا بأمرك إلى قاعدتنا سالمين.

وكان سائق التاكسي ينظر إلي متوجسـا بـين الحـين والآخر من خلال المرآة الأمامية، يريد أن يقول لي شـيئا لا يعرفه فيفضل الصمت لكنه يعاود اختلاس النظر إلـي مـن

جديد، وحين يكتشف أنني أرصده من خلال نفـس المـرآة يسارع بغض البصر في ارتباك واضح.

توقف بي أمام مسجد السيدة نفيسة. في المقام غمرتنـي سكينة هائلة أحسست أنها أمي الروحية وناجيتها مناجاة الابن لأمه الغائبة الحاضرة، ولم ألبث أن انفجرت في البكـاء دون أن أدري كما لم أبك من قبل، وكنت أرى في دموعي مطهرا يغسل قلبي من الخطيئة وينظفه من خرائب الشياطين ليكون بيتا عامرا بنورك وحدك.. بينما لم تكف النساء عن إطـلاق الزغاريد منذ دخولي المقام وحتى غادرته.

بهت السائق وسألني وعيناه متحجرتان فوق قطعة خبز صغيرة ظهرت فجأة في موقع سجودي:

- لم تبك يا حاج.. فيه حاجة؟

- لن تفهم ما بداخلي ولن أستطيع أن أفسره لك.

وفي مسجد السيدة فاطمة الزهراء قال لي الإمام:

- ادخل المقام. إنها تريدك.

فسأله السائق وكانت حيرته في أمري قد استبدت به:

- وأنا يا عم الشيخ؟

- لا.. هو فقط.

عندما فتح باب الضريح الزجاجي ودخلت المقام لاحظت أن السلسلة الحاملة للوحة المعدنية المعلقة على المقام والحاملة لاسم السيدة وتاريخها، قد بدأت تهتز يمينا ويسارا. كان العقيد نشأت قد علمني وردا أقرأه عند زيارتي للأولياء. توقفت عن قراءة الورد حين لم أصدق ما أرى، بل إني خشيت على نفسي من الهوس وكان لابد أن أبرر هذا الاهتزاز الغريب المنتظم بدخول الهواء من خلفي حين فتحوا لي الباب.. وعندما استقر ببالي ذلك الخاطر توقفت السلسلة تماما عن الحركة. لكن ما إن عدت إلى قراءة الورد حتى عاودت الذبذبة من جديد إلى اليمين تارة وإلى اليسار تارة، وعينا السائق تروحان وتجيئان معها في ذهول مثير.. وعند خروجي سألني بصوت عال:

- هل رأيت ما رأيت؟
- أسكت.

وفي مسجد الإمام الشافعي كلما انحنيت متأهبا للسجود رأيت وجها شديد البياض تحت جبهتي تماما.. كلما سجدت فوقه شع نورا من حولي. خشيت على نفسي من الجنون وحمدت الله أن السائق كان يصلي بجواري حتى أسأله بعد

الصلاة إن كان قد رأى ما رأيت. ما إن انتهينا من الصلاة حتى فوجئت به يندفع نحوي قائلا وقد اختفى الوجه تماما من موقع السجود:

- هل رأيت الوجه الذي كنت تصلي عليه؟

"اللهم صل على سيدنا محمد ﷺ هكذا صاح قائد الكتيبة مهللا حين أقبلنا نحوه قبل بزوغ الفجر ساحبين معنا كل ما كان بملاجئ القاعدة الإسرائيلية من صواريخنا المسروقة سام ٢، سام ٣.. إن السؤال مازال يطن في أذني حتى اليوم:

لماذا لم يضربك اليهود وقد رأوك وجنودك تسحبون الصواريخ؟

كنا في مرمى نيرانهم وكانت المسافة تسمح بتدميرنا فلماذا تركونا نفوز بالغنيمة دون انتقام؟

قال القائد:

ألا تدري أن طلقة واحدة منهم حين تصيب صاروخًا ضخما من هذه الصواريخ فإن المنطقة بأكملها تتحول إلى كرة من النار تقضي على القاعدتين الإسرائيلية والمصرية معا؟

وأشفقت عليه كثيرا لعجزه عن إدراك المشيئة الإلهيـة التي أشلت أيديهم عنا.. وكانت كل المنافذ المؤديـة لمسـجد سيدنا الحسين مكتظة بالجنود والمخبرين فهنـاك شخصـية شديدة الأهمية من دون الناس المهمين قادمة لصلاة الفجر مع الناس غير المهمين، وقد بلغت إجراءات الأمن أشدها أمـام أبواب المسجد، حتى أن كثيرا من الناس تراجعوا عن الصلاة في الحسين وحولوا وجهتهم إلى مساجد أخرى.

اخترقت حاجز الحراسة بسهولة رغم اكتشـافي أننـي فقدت بطاقتي الشخصية فقد كنت على يقين سـاطع بـأنني أمشى في حراسة الله.

ما إن اقتربت من باب الدخول حتى استوقفني ضـابط يسألني عن هويتي. نظرت إليه فإذا هو صديق قديم، وإذا به يقودني بنفسه إلى الضريح قبل أن يسمح لأحد بالدخول، كان غطاء سميكا من المشمع موضوعا فوق المقام لحمايته مـن آثار الإصلاحات الجارية بسقف المسجد. ما إن رفع الغطاء حتى هبت من تحته لفحة صهد حارقة تراجـع لهـا شـيوخ المسجد في هلع إلى الخلف وهم يصيحون:

- لا إله إلا الله.

وقال أحدهم هامسا لزميله:

- يبدو أن سيدنا غضبان مما يحدث.

وقال لي الهاتف:

- امسح المقام بيديك على الفور.

ففعلت، وإذا بالحرارة تذهب والمقام يبرد، وتهب نسمة كأنها من ريح الجنة معطرة أرجـاء المقـام، وإذا بشـيوخ المسجد يصيحون وهم متحلقون في وجهي:

- الله أكبر.. الله أكبر.

وتجمعوا من حولي يربتون في ابتهاج علـى صـدري وظهري، وأنا لم يكن لي أدنى علاقة بنفسي في تلك اللحظة وما تلاها من لحظات، حتى أنني أبصـرت نفسـي جالسـا بمنزل السائق وقد تحلق أفراد أسرته من حولي ونحن نتناول الطعام جميعا.

أصر السائق على أن يصحبني ومعه زوجته ليوصـلني إلى البلد، ولما رفضت أن أحمله عبء هذه الرحلـة الشـاقة بعد كل ما قمنا به من جولات، أقسم يمينا ألا يتركني إلا في بيت والدي بالعزبة.. وقال أبي فرحا مستبشرا بعدما سـمعه من السائق:

- اللهم صل على رسول الله.. اليوم فقط تحققت الرؤيا.

أخذني في صدره واعتصرني بين ذراعيه القويتين وهو يحمد الله كثيرا..

تذكرت يوم أن قال لي بنبرة حزينة ذاهلة:

- يا بني..سوف يحاسبني ربنا عليك.

- لماذا يا سيدي؟

فحكى لي رؤياه؛ إذ كان يدعو لـي بالهـدى وصـلاح الحال فتلقى أمرا بأن يكف عن الدعاء لي بصفة خاصة وأن يتجاوزني إلى من هم بحاجة إلى دعائه من أخوتي وأخواتي وغيرهم. توقف عن الدعاء وقد أخذ به الحزن حتى رآنـي وحدثني عن حساب ربه.

قلت في فرحة بالغة:

- وأنا أيضا فهمت الرؤيا.

- بارك الله فيك يا أحمد.. لقد أصبحت أنا المحتاج إلى دعائك الآن.

***

رجال أعمالنا وصدأ أسنانهم:

مهما حدث فلن أعرف اليأس. وكيف لـي أن أعرفـه وفيك أملي والرجاء؟.. قررت أن ألتف من حول سيد بسيوني بأسلوب جديد. لماذا لا أقتحم عرين أكبر شركائه في الجريمة راتب أبو عرام؟.. صليت ركعتين استخارة ونمـت مسـلما أمري إليك.

حين أصبح الصبح أفقت على انقباض صدري واختناق روحي وكنت أشعر بخوف شديد من أشياء مجهولـة. كـان الجو مكفهرا ورغم هبوب ريح ساخنة متربة إلا أن السـماء كانت تمطر على فترات متناوبة قطرات ضخمة من المـاء، أشعر بلزوجتها حين تسقط متثاقلة على وجهي..

سائر في الطرقات بلا هدف. كان موعدنا بعـد صـلاة الظهر.. همي الوحيد أن أخلص من ذلـك الشـعور الحـاد بالكدر الذي استبد بي منذ فتحت عيني على يوم جديد شاءت الأقدار أن يكون يوم لقائي براتب أبو عرام.

أكثر ما كان يؤلمني أنني كنت فاقدا الإحسـاس بـنعم الصباح التي اعتدت أن أحمدك دوما عليها من قطرة نـدى

لابتسامة طفل أو تفتح وردة على غصنها لتستمع إلى زقزقة العصافير وهي تسعى إلى رزقها مع الناس والدواب.

الأولاد بالمئات ذاهبون إلى مدارسهم لا يدركون شـيئا. تتساوى نضرة الأوجه مـع ذبولهـا أمـام بـراءة العيـون واخضرار القلوب. أفواه مفتوحة ونوايا بيضاء.. فكيـف لا ينتابني الخوف على أيامهم بنفس القدر الـذي ينتـابني فيـه الخوف على أرضي وابنتي ونفسي وديني ووطني؟...

وإذا لم يكن الماضي مبشرا بالخير فمـن أيـن تـأتي الطمأنينة للحاضر والمستقبل؟.. إنه رعب الوجود يصـيبني اليوم فجأة، وأجدني أحمل نفسي وحدي مسؤولية الفوضى في هذا العالم المعتم اللون ذي الرياح الساخنة وقطرات المطـر اللازجة.. ﴿ربنَا ولاَ تُحملْنَا ما لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾. بل أنت يا أبـا راوية الذي تظلم نفسك وتتفنن في تعميق ذلك الظلـم بـين الحين والآخر.. مالك أنت بكون يـدبره صـاحبه. اعـرف مقامك جيدا. ما أنت إلا روح في جسد حياته موقوتة بـزمن مجهول لن تعرفه مهما أوتيت من علم. ما أنـت إلا كيـان طيني قليل الحيلة مهما أوتيت من قوة. إنـك عـاجز عـن التواصل مع ابنتك فما أتعسك!

ظللت أمشي قرابة ساعات أربع دون أن أنتبه إلى نفسي حتى صادفت جنازة يسير فيها عدد غير قليل من أبناء الحي الذي قادتني إليه قدماي. انضممت إليهم بوازع قوي من الرغبة في المؤانسة ولا شيء غيرها. اخترقت الجنازة العديد من الشوارع الضيقة والحواري المزدحمة بالباعة الجائلين والأطفال ورواد المقاهي والسائرين مثلي نياما والمهرولين في كل اتجاه بعيون شاردة يتسابقون جميعا نحو هدف يبدو أنه وهمي غامض. يا إلهي كم تكاثر أحفاد آدم بدرجة رهيبة. تزاحموا في الشوارع والطرقات والمصانع والمساكن والمدارس والمستشفيات، أحدثوا ضجيجا مزعجا في كل مكان بأصواتهم وأصوات آلاتهم وقنابلهم وعرباتهم وميكروفوناتهم، تكاثرت عوادمهم وطفح كيلها في المجاري وغازات المداخن والسيارات والطيارات ونفايات الطعام والدبابات والمعامل ومخلفات الاحتراق الآدمي والآلي كافة، فأصيبت حياتي بتسمم شديد يستعصي على العلاج.

بنفس وازع المؤانسة اقتربت من اثنين في حوار حميم على بعد خطوات من النعش:

- نظر ماذا يركب المرحوم الآن.

- إنها خشبة، والمسألة ليست بحاجة إلى أن أنظر.

- أريد فقط أن أذكرك بما كان يصر عليه بالأمس.

- آه.. المرسيدس. كان يتمنى بالفعل ركوب المرسيدس ويصر على ذلك.

قال الآخر في دهشة تكاد تخلو من السخرية:

- رغم أن عربته البيجو كانت أجمل بكثير من هذه الخشبة.

صلينا على الميت الذي لا أعرفه وواصلنا المسيرة باتجاه المدافن.. وفي غمرة الفوضى والضجيج عند تقاطع شوارع أربعة مرق رجل لا يتجاوز الأربعين من بين السائرين في الجنازة حتى تجاوزها إلى مقدمتها ووقف يرقص في منتصف الميدان مستخدما أصابع يديه كما لو كان يدق بصاجات معدنية:

كان نصفه الأسفل عاريا تماما.. أما نصفه العلوي فقد ستره قميص متماسك.

تعجبت لذلك الانقلاب الذي حول حالي من قبض إلى بسط، ولكني لم ألبث أن اهتديت بسرعة إلى السبب. لقد كانت ابتسامته السعيدة البهيجة الغافلة تتحدى كل هذا الزحام

البشري من أحفاد آدم الساعين في الأرض بضجيجهم وتهافتهم وهرولتهم في شتى الاتجاهات.. ولفرط سعادتي بانقلاب حالي أيقنت أن تلك الابتسامة ليست بغافلة وإنما هي ابتسامة العارف الساخر والتي أمدتني بقدرة فائقة على الجلوس وجها لوجه أمام المجرم العتي راتب أبو عرام.

جاءني في جلباب بال قذر، يعف متسول بائس عن وضعه فوق جسده. كان بصحبته واحد من أتباعه. سحب له مقعدا وهو يقول في عبودية مقززة:

- تفضل يا بيشة.

"والبيشة" حسبما أدركت هي تدليل للقب الباشا، وهي في الوقت ذاته حجاب وجه المرأة الذي كان سائدا في مصر حتى الخمسينيات ثم اندثر. دهشت للمفارقة اللفظية فالباشا القديم لم يكن يحجِب – في معظم الأحوال – عن فلاحيه الخير الذي يرفل فيه، أما الباشا من طراز راتب فلأنه لص لا يعرف الطمأنينة، لا بد أن يحتجز لنفسه ما يسرقه من خيرات الشعب ويحجبه عنه، وبذلك يكون جديرا بلقبه الجديد:"بيشة"

قال أبو عرام:

- هناك عهد بيني وبين كل خصومك وعلى رأسهم سيد بسيوني ألا يعقد أحدنا معك اتفاقا منفردا، ولكني جئتك كرما مني.. أنت لا تعرف هؤلاء الناس مثلما أعرفهم.

وسألت نفسي إن لم يكن هذا هو الزمان الذي يدعي فيه اللئيم الكرم فمتى يكون هذا الزمان؟

- كيف؟

- لقد كونوا ثرواتهم من صدأ أسنانهم.

عجزت عن فهم مدلوله تماما وإن كان انطباعي العام – لما قصده – أنهم جمعوا ثرواتهم بأقذر الأساليب. لكن لمـاذا يطعن في قبيلته؟ تمالكت نفسي حتى لا أتقيأ وسألته:

- ألست واحدا منهم؟

قال متباهيا بوضاعته:

- بالطبع.

حين قضت قرارات التأميم بمصادرة أمـوال الأغنيـاء التي توارثوها عن أجدادهم تساءل الناس الطيبون في دهشة: ﴿أهم يقْسِمون رحمةَ ربك نَحن قَسمنَا بيـنَهم معِيشَـتَهم فِـي الْحياةِ الدنْيا ورفَعنَا بعضهم فَوقَ بعضٍ درجاتٍ لِيتخِذَ بعضهم بعضا سخْريا﴾.. فكانت الإجابة غضبا ونكسة ولعنة ومراكز

قوى وسجونا ومعتقلاتٍ وقطاعا عاما يصول فيه اللصـوص ويجولون. وكيف لا يكون الحال كذلك وقـد أصـبح المـال المتداول في البلاد مالا مشكوكا في شرعيته.. ولولا دعـاء هؤلاء الناس الطيبين لما كانت معجزة أكتوبر التـي تنهـال بفضلها الأوسمة والنياشين في كل عام على صدور أهل الفن والرقص والغناء.

هذا "البيشة" الجالس أمامي بدأ حياته "سقاء" أي حامـل جوزة للحشاشين في المقاهي والغرز. ها هو يتفاخر بشـرح فلسفته في جمع ثروته من صدأ أسنانه.. يقول الباشا الجديد:

- أبدأ العملية بعقد صفقة في الخارج بعدة ملايين.
- حقيقية أم وهمية؟
- سيان.

وأتعجب من ثقته الوقحة في كشف أوراقه وكأنه لا يعير وجودي أدنى اهتمام. ولا يعبأ بالتفكير لحظة في أي خطـر محتمل من جانبي على ضوء ذلك الكشف. بدا لي أنه يتعمد استفزازي بذلك، لكن استمراره في ذكر المزيد من التفاصيل أكد لي أن المسألة أكبر بكثير من مجـرد اسـتفزازي. إنـه

الغرور بالقدرة على نهب هذا الشعب وكأن ما يفعلـه أمـر طبيعي، من الشذوذ أن يستهجنه أو يتردد في القيام به.

- بعد ذلك أذهب إلى أحد مديري البنـوك مـن آكلـي "الدربسكات" لأقترض بضمان المشروع.

- لدربسكات؟

- يعني: البواكي يا باشا.. الفلوس.. الرشوة.. آه

- وكيف تعرف أنه كذلك؟

- من صدأ أسنانه ولا مؤاخذة.

- لا إله إلا الله.

- ثم أعلنه أن ممتلكاتي بمصر تقل كثيرا عن ربع قيمة القرض وأطلب منه تقييمها، فتضاعف لجانه "المنتقـاة" مـن قيمتها عشرات الأضعاف ويتم تحويل القرض إلى الخارج.

وأتفرس في وجهه بما بقي في صدري مـن مخـزون للصبر..اسرق وانهب كيفما شئت أيها الـتعس فـإني أراك تحمل كنوزك بأكملها على كتفيك يوم القيامة.

وفي الخارج أفض المشروع مع الخواجة ويـا دار مـا دخلك شر.

- كيف؟

- أعطيه عمولته وأضع المبلغ في أي بنك أجنبي.

- وماذا تفعل لو اكتشفت الأمر؟

- لا شيء.. يحجزوا على أملاكي التي لا تساوي شيئا.

ولولا أنني بشر هلوع لتركت لك أرضي عـن طيـب خاطر، فأنت خير استثمار رباني يرفع رصيدي خصما مـن حسابك يوم الحساب الختامي، حيث ينتهي العمل ويبدأ العلم.. وانتبهت فجأة لقوله:

- هات من الآخر.

- هات أنت.

- أنت الذي طلبت لقائي.

- أريد أرضى.

- كن واقعيا أكثر مما كنت مع سيد بسيوني.

- كيف ؟

- أنا قادر على إقناعه هو والآخرين بمضاعفة القيمـة التي عرضت عليك عن كل فدان... وليس لدي ما أقوله أكثر من ذلك.

- لكنك تعلم أن هذا ظلم صارخ.

- قل لي ما العدالة وأين تقيم، أتنازل لك عـن الأرض في التو واللحظة.

الزلزال والثعابين:

تمنيت أن يزلزل الله الأرض زلزالها حتـى أرى يـوم الوعد ويرى هؤلاء الحثالة يوم الوعيد، ولمـا أن وضـعت رأسي على الوسادة عصر ذلك اليوم مـن أكتـوبر كـادت الأرض تميد بي حين أصابني دوار مفاجئ وخيـل إلـي أن السقف يهتز وأن الفيلا ستنهار فوق رأسي فاستعذت بالله من الشيطان ورحت في نوم عميق.

حين صحوت كانت مصر تتحدث عن زلـزال وعـن آثاره المدمرة، لكني كنت واثقا أن سيد بسيوني وعصابته لم يصب أحدهم بسوء، ذلك أن أحدهم لا يعرف الفـرق بـين سرقة الأرض مـن المـواطنين وسـرقة الصـواريخ مـن الإسرائيليين.

في أكتوبر أيضا ولكن قبل الزلزال بتسع سنوات كـان البواس في اجتماع ثنائي هام بالقاهرة حين قوطع عدة مرات بالرسائل الشفرية العاجلة، وحين نفد صـبره اقـتحم عليـه مساعده سيسكو غرفة الاجتماع قائلا: إن هناك رسالة مـن

جولدا مائير تقول فيها: إن لديها تحفظات على النقاط الست المقترحة لفصل القوات؛ فانفجر البواس صائحا في عفوية:

- ما الذي تريده الآن؟.. ألم تكن هي التي وضعت هذه النقاط الست بيدها؟

ثم صمت قليلا وقال:

- غريبة.. إن إسرائيل فوجئت بقبول مصر لمقترحاتها، ومن ثم تريد أن تعيد التفاوض فيما سبق أن اقترحته بنفسها. وحتى تلك اللحظة كان السادات واثقا من أن "صديقه العزيز" كيسنجر هو الذي وضع هذه النقاط رغم أن البواس أكد له في أول لقاء بينهما أن واضعها الحقيقي هو مساعده سيسكو.

ارتديت ملابسي على عجل لأشتري الجريدة المسائية، وما إن هممت بالخروج من غرفة نومي حتى لمحت ثعبانا طويلا يعترض طريقي وقد انتصبت رأسه في ثبات. عيناه تتأملاني في نظرة أقرب إلى الدهشة منها إلى الشر ونية الغدر. تجمدت في مكاني وقد انتابني الهلع وشل تفكيري تماما. مرت لحظات ثقيلة مخيفة سوداء وهو يبادلني النظر بلا حراك أو انفعال.. هس هسك موسى، وأسكتك إبراهيم، وختم عليك بالقرآن الكريم.. ﴿رب إِني مسنِي الضر وأَنْتَ

أرحم الراحمين».. «فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم».. وأنزل الثعبان رأسه وزحف متراجعا. بحثت حولي بأقصى ما تمكنت من عجالة عن شيء حاد أضربه به فلم أجد إلا كومة من ملابسي الملقاة في غير عناية على أحد المقاعد. قذفت بها فوقه وأسرعت طائرا خارج الفيلا.. وكان ياسر عرفات أكثر المتشددين في اتهام السادات بالخيانة والصلح المنفرد مع إسرائيل، حتى إذا ما قارب عام ١٩٩٤ على الانتهاء دون أن أحرر أرضي رغم تعاقب العديد من وزراء الداخلية على حياتي ومعهم تعاقب ضباط بوليس ووكلاء نيابة وقضاة ومحامين وسماسرة وملاك، فإذا بياسر عرفات يعلن الطوارئ في معتقله ومنفاه الاختياري بغزة ويطلق نيران بوليسه الفلسطيني على الفلسطينيين المطاردين من الإسرائيليين، وإذا بثعابين أمريكا، وإنجلترا وسيد بسيوني وروسيا وأبو عرام تزحف من روسيا وفرنسا إلى أرض العامرية وأريحا والكويت، وإذا بمجلس الأمن الأمريكي يعجز مثلما عجزت جامعة الدول العربية عن إخراج هذه الثعابين السامة من أرضي في العامرية ومن تحت مقعدي الشاغر في مجلس الشعب رغم أني نجحت في إخراجها من

الكيلو ١٠١ قبل أن أدمـن الجلـوس فـي حديقـة منفـاي الاختياري بالعجمي أصارع وحشة الليـل وأعـد الشـهب الساقطة.

***

الخلوة

(رواية الجدار)

أبكيك يا راوية وأنت على قيد الحياة بعيدة عن أحضاني ذلك البعد الكوني الأليم. لكل رجل في الأرض أنيسة يهجـع إليها في المساء. تعد له طعام العشاء. يتسامران بكلام الـدنيا ويتلامسان في رفق ومودة. يربتان على ظهور أبنائهما قبـل النوم.. أما أنا يا راوية فآه من لوعة الوحدة، وآه من قسـوة الصمت على أعتاب محطتي الأخيرة، محطة الاعتراف بمـا آل إليه حالي كما يعلمه مولاي ويشهد بصدقه.

لقد عجزت عن استرداد أرض أسرتي المنهوبة حتـى الآن وتعطل تحقيق حلمي بالخلوة إلى مولاي بعـد توزيـع الأرض المستردة بين أهل الله وأسرتي. هذا هو الأمر الواقع فلا خجل من التصريح به ما دمت لم أقصر في السعي.

إنني لم أدع بابا دون أن أطرقه. حتى الأجاويد تعاملت معهم عندما يئست من الإنس..إني اليوم أسلم الراية لمن يتقدم من أجيال أسرتنا الجديدة، فلم أعد قادرا على استخلاص الأكسجين من نفس الهواء الذي يتنفسه هؤلاء القوم الذين اعتصروا زهرة عمري. إني لست طالب مال ولا مجد، كلاهما يورث الاضطراب، وإنما أنا طالب أحلام اختزنت في السحاب طويلا فحل بها النحس وتبين لي أن معظم الوعود كاذبة وأن دنيا الناس جديرة بالرفض والابتعاد.. وأنا في خلوتي المنشودة لن أشعر باحتقاري للحياة أو بعشقي لها، بل أكاد أتصور غيابها عن ملكاتي فأتوغل في عزلتي بلا رفيق.. وكلما أتوغل سوف أزداد بعدا عنك يا راوية فلا تحاكميني بمنطق الدهماء. كوني كريمة معي فأنا لم أذنب حين سلمت أمري لصاحب الأمر ورأيت أن أختلي به تاركا من ورائي كل شيء دون القرب منه ومحبته. وقد يمر زمن طال أو قصر، عشت أو مت، تعود فيه الأرض إليكم، لكني لن أشعر، وإن شعرت فلن أهتم ولن أبالي.. سوف يكون تجاوزي للناس والأرض وأنواط التكريم وكلمات الحب تجاوز الإشفاق لا تجاوز الاحتقار.

تزوجي يا راوية وأنجبي واسـعدي بحياتـك ولكـن لا تغفلي تعليم أولادك الفارق الرهيب بين الفناء والبقاء وبـين الممر والمقر وبين الحلم واليقظة وبين الملك والملكوت وبين الحال والمقام وبين الشهادة والغيب.

***

(سيد بسيوني)

لم الطمأنينة يا رجل وكأنما ليست لرحلتك نهاية؟... إنني لا أنكر سعادة التألق والسيادة في المنافسة، ولكن ما أروعها حين تكون بالحق.. رغم ذلك كنت الفائز في معركتك معـي حتى الآن، وكان فوزك بتفوق عظيم لأنك مـدعوم بسـطوة الجهل مستند إلى صخرته الصلبة الصلدة التي لا تهزها ريح ولا يذيبها مطر.. لكنها قد تمحى أحيانا فـي لمـح البصـر بصاعقة مفاجئة أو بقنبلة عن طريق الخطأ أو العمد، وهذا ما تغفل عنه دائما أنت وبطانتك.

عشت على القمة بعقلية سكان السفح وعشت في السفح متعاليا بثروتك، وهكذا حرمت نفسك من الحياة الحقيقية، فلا أنت راحل ولا أنت عائد وإنما مجرد زفرة كراهيـة لا أثـر فيها لروح الكرم أو السخاء أو الإنسانية.

سوف لا يكون هناك معنى ذا فائـدة لأن أسـتمر فـي توصيف موقفك من الحياة والذي انعكس بالتالي على موقفك مني، غير أني أذكرك اليوم قبل الغوص في خلـوتي حيـث

يكون مصيرك النسيان. أذكرك من باب العبادة وأطل علـى شخصك البائس من نافذة التأمل في غرفة الحياة التـي لـم تعرف كيف تعيشها أو كيف تحبها، فأهل الدنيا يعلمون تماما أن حب الحياة هو حب دوام ما هو موجود بها..

يا إلهي.. إنني لم أر في حياتي مخلوقا أكثر غباء منـك أيها الرجل. أنت وزوجتك لا تنجبان.. وأرضي التي نهبتهـا لم تحقق لك معجزة الإنجاب.. ومشكلتك يا سيد بسيوني أنك لم تذكر الموت حتى الآن، بل لعلك أمضـيت عمـرك كلـه هاربا متهربا من السؤال الذي يطاردك:

- إلى من تؤول كل مسروقاتك؟

ولعل زوجتك قد استسلمت لليأس أخيرا فلم تعد تلتقـي خلسة بالأطباء والدجالين المقربين.. أما إنها مازالـت تهـتم بتدليل نفسها وقد تجاوزت الأربعين فذلك أمر لا علاقة لـه بالحمل وإنما مرجعه إلى أن شيئًا في قرارة نفسها يحتقـرك ومحال أن ينام الاحتقار مع اللذة على صـدر امـرأة شـبقة للحياة، محرومة من الحب، ممنوعة بأمر الله من الأمومة... والله عـــدل يا سيد بسيوني!

(السيد الوزير)

لو دامت لغيرك ما آلت إليك يا معالي الوزير. أين أنت الآن؟.. فرد عادي من أفراد الشعب؟.. أبدا.. عضو مبرز في مؤسسة هامة؟... أبدا.. إنما أنت سجين بيتك يحرسك الجنود من الإرهابيين. حركتك محسوبة. حريتك مكبلة. قلت لي وأنت في عنفوان سلطتك أنك ستعتقل اللص وتنتزع الأرض منه وتعيدها بقوة القانون إلى أصحابها. ترى هل كان قانونك مغايرا لقانون البلاد؟ أم أنك كنت تتسلى برجولتي، وما دافعك إلى ذلك ما لم يكن سيد بسيوني قد اشتراك بقانونه وصدأ أسنانه؟

لو لم تهدني يا مولاي إلى الخلاص بالخلوة لذهبت إلى الكيلو ١٠١ ومعي رجالي وقمت باحتلال مساحة منه تعادل مساحة أرضي المسروقة، فحين تسلل اليهود من الثغرة تسلل أتباع سيد بسيوني إلى أرضي والعين بالعين والسن بالسن. وأما اليهود فحصلوا على كل شيء وأما أنا فلم أحصل على شيء. وأما حكام العرب فرحبوا برابين في الدار البيضاء، وأما المحامون والقضاة ورجال الشرطة ووكلاء النيابة فلم

ألق منهم عونا ولا ترحيبا باستثناء ذلك الأفاق الذي فتح لـي ذراعيه وراح يحتضنني ويقبلني وأنا لا أذكره.

المقعد يا سيادة الوزير هو الذي يستعبدك مثلما اسـتعبد من كان قبلك ومثلما يستعبد من جاء بعدك، وأنا هارب إلـى مولاي من أي مقعد قد تضعه الدنيا تحت مقعدتي..إنني يـا فخامة الوزير أنشد ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

***

(الكيلو ١٠١.. القناع)

في خلوتي أتحرر من كابوس القناع فمادتـه كراهيـة ضاقت بها عيناي، فما بال القلب الذي ينشد المعرفة الربانية بجلالها وجمالها؟.. يسقط القناع أمامي فتحيله تجليات الأنوار إلى عناصره الأولية لتذروه الرياح... وعناصره تراب ومال حرام وحسن الجاويط وضابط شرطة مرتشٍ ومحام عميـل ووكيل نيابة مزور وقطاع طرق وتجار مخـدرات وصـدأ أسنان ومديرو بنوك خربو الذمة ولجان مأجورة وجربـوع وسيد وراتب وحاكم يقسمون رحمة الرب بمعرفتهم، وشعب منهك يعاني من دوار الرأس ونساؤه مسـتنزفات ورجالـه

مستهلكون لكثرة الاستخدام.. وأنا كما قلت من قبل مخـتص بفهم النذالة موهوب من الوهاب باكتشاف مكامنها عن الخلق، فالخلوة إذن منقذي ومخرجي وخلاصي ومن اطلـع علـى أسرار العباد ولم يتخلق بالرحمة الإلهية كان اطلاعه فتنـة، وسببا لجر الوبال عليه.

****

(راوية الجدار)

إياك أن تظني بي الهروب يا راوية، فأنا مـن شـرف بتمزيق القناع بينما أدى غيري له التحية. أنا من أشار إليـه وصرخ بأعلى صوته وأنفق معظم ما يملك لكشف ستره.

يكفيكِ فخرا أنني لم أفكر يوما في ارتدائه فهو رخـيص مباح للجميع، وحين أهرب من الناس إلى رب الناس فهذا هو قلب الحكمة وكمال المعرفة وذروة الشجاعة. إن مؤاخاة زمن القناع أو مصالحته أو مهادنته يعد ارتباطا بالعالم الخارجي، وأي ارتباط بهذا العالم وهو خوف منه، وأنـا لا أخـاف إلا مولاي ولهذا بدأت الخلوة. لا تسأليني مـا زمنهـا فلسـت أعرف. لا تسأليني إلام تنتهي فلست أعـرف، ولا طريـق

لأنوار المعرفة إلا بعد خلاص القلب للمـولى، وإلا فكيـف يشرق قلب انطبعت في مرآته صورة الكون؟

***

(الشيخ حمودة أبو الحمد)

- اتق الله يا عم الشيخ.

....

- قناعك.

....

- قد يحين أجلك في التو واللحظة.

....

- أنا من جواسيس القلوب.

....

- أنت أكثر العارفين بكذبك ونفاقك وضلالك.

- ارحمني يرحمك الله.

****

(دليلة)

يا ويلي وويلتي ويا رمز جاهليتي. أستحلفك بالله أن تدعي لي بالغفران أينما كنت وكيفما كنت.

لقد عزمت على الرحيل دون أن أعرف وقت العودة فساعديني في طلب الرحمة لي ولك ولا تقنطي.

قادر مولاي على أن يحيل قلبك من قنبلة شر موقوتة إلى قطعة من البلّور. شريكتي أنت في الشهوة حين كان الظلام يعمِي قلبينا وجوارحنا. صدقي أولا تصدقي يا أختي المسكينة – مثلي تماما – أنني لم أعد أنشد إلا شهوة واحدة هي شهوة القرب من مولاي. إنني أرغب في الفناء في شهوتي المبتغاة حتى لا أصير أنا.

***

(الجنرال إيزاك شارون)

أتهمتك بالجنون حين دعوتني لزيارتك بمنزلك في تل أبيب، فكم كنت – أنا – ساذجا هنيئا لك يا بن العم فثغرتك التافهة الخطيرة بين جيشينا قد انتهت بكم إلى امتلاك الشرق الأوسط بأكمله، ومن المدهش أن سمسار الثغرة البواس قد

توارى لأداء دور آخر بينما حل محله سمسار آخر شـمعي الوجه مشوه المعالم مخيف النظرة اسمه وايـن كريسـتوفر، فالاغتصاب مقترن دائما بالتشوه وبالسمسرة. وإننـي أسـمع الحوار الدائر بيننا في مكان ما دون أن نلتقي رغم أنـه مـا أسهل أن نلتقي، فأنا في خلوة لا تفهمها يا إيزاك:

- كنت تعرف مقدما ما سوف يحدث كله؟
- بل كنت أتوقع بعضا منه.
- لقد اعترفت بذكائي، فكيف لم أتوقع مثلما توقعت؟
- لأنني يهودي ولأنك مسلم.
- كيف؟
- أنا أملك العقل فقط، وأنت تملك العقل والقلب.
- إذن فكفتي أرجح، ورغم ذلك...
- العقل والقلب لا يتفقان، فكل منهمـا يعـوق حركـة الآخر.
- نختلف حقا.
- هل تذكر لقاءنا حين تفاخرت بأنك غير مسلح.
- نعم.
- كان بإمكاني أن أقتلك.

- لا.

- كيف؟

- كانت رشاشات الجنود مصوبة إلى قلبك من أعلـى التبة في انتظار اهتزازة واحدة من يمناك.

- إذن فلقد أعملت عقلك وناورت بقلبك لتظهر التفـوق والسيادة.

- نختلف ثانية.

- لا بد أن نختلف بالطبع وإلا فبماذا تفسر لي ما أقدمت عليه؟

- الخلوة.

- نعم؟؟

- وجدت في قلبي الكفاية.

- وهل هذا حل صحيح لمشكلة الحياة إن جاز أن نسمي الدنيا مشكلة؟

- لقد اخترت"الغم".

- أي غم؟

- الخوف من الله.. ألم تقرأ في توراتكم شيئًا؟

- قليلا.

- عد إلى سفر التكوين في العهد القديم واقرأ "من ازداد حكمة ازداد غما".

وتصم أذني حينذاك عن إيزاك وعن أي شيء سـواك، ولتكن أرضي قربانا للقرب يدفع بي إلى برزخ المحبة، وإن كان العقل عائقي فعليه اللعنة أيها الجنرال، فمولانا لم يـنعم علينا به ليحول بيننا وبينه، وإنما ليصلنا به محفـوظين مـن عوارض التلوين، محفوفين بالبهجـة، مكـرمين بالفرحـة، مغمورين بالرحمة. وداعا يا إيزاك بثغرتك وعقلك. وداعا يا أرضي بثغرة الجاويط وعقل الجربوع..فالقناع قـد اسـتحال عندي إلى تراب بعثرته الرياح.

****

(الشرطة)

علموك يا مسكين وأنت طالب في كلية الشـرطة أنـك الأعلى ومن عداك هم الأدنى.. توقف سائق التاكسـي فـي الطريق وتقول له وهو في عمر أبيك:

- هات رخصك يا روح أمك!!

وعندما يطاردك الإرهابيون بالرصاص والقنابل. تجري لتحتمي بالأهالي تبحث عن النجاة بسد الثغرة التي توهمتهـا بينك وبين مواطني بلادك، فبئس العبد عبد عتا وبغى ونسـي المبدأ والمنتهى. دعني أذكرك يا أخي بأن تذكر دائما وأنـت تمشي في خيلاء أن في بطنك "خراء" كسائر الخلق وأن أولك نطفة مذرة وآخرتك جيفة قذرة... اخلع قناعك فإني تاركـك إلى خلوتي مع الذي قـال إن "العظمـة إزاري، والكبريـاء ردائي، فمن نازعني فيها قصمته" لو خلعت القناع لن ترتشي ولن يشتريك سيد بسيوني ولن تساوم على كرامتك لا بأموال الجربوع ولا بأموال قارون.

كنت طفلا صغيرا أيام ثار الشعب في ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧.. كان أندادك يهربون من الشـعب كـالجرذان ويختبئون في المنازل. لك الله أيها العالم الذي كتب عليه أن يظل ثالثا.. والحمد لله فإني ملأت العوالم كلها: الأول والثاني والثالث والحادي عشر.

لقد أضاعت ثغرة الجيش أرضي فأغلق ثغرتك الوهمية التي تورثك الكبر والانتفاخ بلا داع.. أما كان من الأجدر بك

وأنت خادم الشعب أن تقف بجانبي وتـؤدي عملـك بأمانـة فترضي ضميرك وترضي ربك حتى أستعيد حقي؟

إنني في حل من نصحك، فلقد أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد، وإني أرى في كثرة مشاهدتك أنت وأشـباهك على ما مضى من عمر، تهوينا للفساد على الطبع، فالاعتياد آفة وأنتم يا شرطتنا مثلكم كمثل الكير إن لم يحرقك بشـرره علق بك من ريحه.. ففي خلوتي تكون السلامة مـن فتنـتكم والخلاص من شروركم.

****

(البواس)

كنت تطبق ما جاء ببروتوكولات حكماء صهيون تطبيقًا نموذجيا،لا بأسلوب الطالب الذي يحفـظ الـدرس فيسـمعه لأستاذه نصا وروحا، وإنما بأسلوب المبدع الخبيث الذي يكره كل ما هو غير يهودي، وربما كنت تكره جنسيتك الأمريكية فليس هذا بمستبعد عليك. لولا أكاذيبك المتقنة لما وضع سيد بسيوني جراراته الزراعية على أرضي وكتب عليها اسـمه بالبنط الكبير. لولا خدعك الدنيئة لما تمكن السمسار العبد من تهيئة الطريق لسيده وتمهيده مثلما مهدت بنقاط مائير السـت لفصل القوات. هل ألعنك في خلوتي؟ ليس هـذا مـن آداب ديني. ماذا تفيدني ذكراك غير تشـويش القلـب ووسوسـة الشيطان بمؤخرة دليلة وسوءة مباحثنا وخيبة تكريمنا وأجاويد الشيخ حمودة وفدادين الشيخ حمودة؟.؟. لقد أخطأت يا سادات رغم انتصارك العظيم حين صدقت السمسار، فأصـل كـل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.. ما علينا فقد حدث مـا حدث وكله مكتوب، أما أنا فإلى وحدتي ولن أكـون وحيـدا

لأني سأخلو إلى مولاي، إن شئتُ أن يناجيني قرأت قرآنـه وإن شئت أن أناجيه قمت بالصلاة له.

****

(السائق)

لن أنسى دهشتك ما حييت، رغم أني كنت أكثـر منـك دهشة وانبهارا وذهولا. سوف أذكرك دوما في خلوتي بالخير وأدعو لك ولأسرتك بهناء البال ورضا النفس، غير أنه مـن المؤسف أنني لا أتذكر اسمك، لكن ما قيمة اسم إنسان؟

حوار العين يؤكد ثقتك بأنني زنديق عتيد. حديث عهـد بالتقوى، لا ينتظر بأي حال من الأحوال أن تقع علـى يـده كرامة أو أن تحل به بركة أو أن يسطع في قلبه إشراق.

أنا واثق من أنك كنت تفكر – وقتئذ – في أحوال الدنيا وتتعجب أن يتسع رزقك في ذلك اليوم على يد رجل يحبـو نحو العبادة كمخرج عاجل من أزمة طارئـة لا يلبـث مـن بعدها أن يعود إلى زندقته. وسألتني:

- الباشا من أين؟
- من كوم حمادة.

- يهيأ لي أنني أعرفك.

- لكثرة نظرك إلي في المرآة هيئ لي أنا الآخـر مـا هيئ لك.

- وأين تعمل ولا مؤاخذة؟

كانت صدمتي في الجيش أقوى مـن احتمـالي ثرثـرة عابرة مع سائق تاكسي..قررت أن أغلق عليه باب المحاورة.

- في الدنيا؟؟

لم ييأس. إني معجب بخفة ظله وهو يواصل استدراجي إلى الحديث معه:

- عيناك تخفيان تجربة شيخ رغم شبابك المتدفق.

- مع إعجابي بذكائك أرجو أن تتركني لحالي وتسكت.

في البدء كانت متعتي أن أحيرك وأتسلى بدهشتك، وفي المنتهى سقطت أسيرا في حيرتي ودهشتي حين تجلت علـي أنوار لا عهد لي بها وفيوضات لا قبل لي بها، وكأن استقبال الخير ليس بالأمر الهين كما يظن الناس. إن مستقبل الخيـر أحوج بكثير إلى عون الله من مستقبل الشر.. هكذا تعلمـت من تجربتي معك.

أيها السائق الطيب يا من لا أذكر اسمه، لولا وجـودك بجانبي في كل ما تلقيت من نفحات لظننت أنني واهم، ولمـا اختلفت عن إيزاك شارون في شيء.. كنت لي بمثابة القلـب لحظـــة ذهـــول العقـــل، لـــولا جولتـــك بـــي بـــين آل البيت الكرام لما خطرت ببالي فكرة الخلوة يوما ما، ولما كنت في مجلسي هذا تحت تكعيبة العنب تظللني سماء صافية وتحيط بي الملائكة من كل جانب، فأنا لم أعد أفعل شيئا غير السباحة في نهر المحبة.

لا أستقبل مخلوقا غير الخادم الذي يحضر لي الطعـام وينظف المكان. لن أتقن عملي قبل أن أجيد السباحة فقد سبق أن عملت كثيرا من قبل وباء عملي بالفشـل. والحـق أنـي كرهته وكرهت أي نفع يجئ منه؛ إذ يضطرني إلـى طـول الأمل وينزلق بي إلى سخافة الاستئناس بغير الله.. وعنـدما أتقن السباحة فليفعل الله بي ما يريد.

جاء الهاتف متسائلا في دهشة وما كان له أن يدهش:

إذن فخلوتك موقوتة؟

- بالطبع.

- لكنك لم تفصح عن هذا منذ البداية.

- نعم.
- وأعلنت تسليم الراية لجيل جديد.
- في كل ما أقول وأفعل أتلمس طريقي بنور الله الهادي.
- وماذا تنوي أن تفعل بعد انتهاء الخلوة؟

****

(الشتاء)

أحبك لأنك فصل الهاتف.. يكثر من مجيئه بمجيئك، وكلاكما يجيء بالخير والإلهام. إنني بحاجة إلى سيل من المطر أغسل به نفسي. أطهر به قلبي: أصفي به روحي من أدران الدنيا. أيها الهاتف الحبيب لقد نجحت في تأدية رسالتك. أبشر.. واهطل يا مطر الدنيا كله. اكتسح رفات الأقنعة واغسل ونظف وطهر.. إنني أرى باب الصفاء يفتح لي في مساء جميل يغني فيه القمر وترقص النجوم على أناشيد المحبة، والصمت يسبح في الفضاء بحمدك ويبث لي نور الأمل في عفوك ورحمتك يا ذا الجلال..

ويوم تأذن لي بنهاية الخلوة ولو بعد ألف عام فسـوف أخرج إلى الخلاء مناديا: "أيها الناس. من عاش مات. ومـن مات فات. وكل ما هو آت آت".

سعيد سالم ١٩٩٤/١١/٢٣

صدر للمؤلف

١-	جلامبو	رواية	١٩٧٦	إسكندرية
٢-	بوابة مورو	رواية	١٩٧٧	إسكندرية
٣-	عمالقة أكتوبر	رواية	١٩٧٩	القاهرة – هيئة الكتاب
٤-	آلهة من طين	رواية طبعة أولى	١٩٨٥	القاهرة – هيئة الكتاب
	آلهة من طين	رواية طبعة ثانية	١٩٨٦	دمشق – دار الجليل
٥-	عاليها أسفلها	رواية طبعة أولى	١٩٨٥	دمشق – وزارة الثقافة
	عاليها واطيها	رواية طبعة ثانية	١٩٩٢	دار ومطابع المستقبل– مصر
	عاليها أسفلها	رواية طبعة ثالثة	١٩٩٥	القاهرة- هيئة الكتاب
٦-	قبلة الملكة	مجموعة قصصية	١٩٨٧	دمشق- اتحاد الكتاب العرب
٧-	الشرخ	رواية	١٩٨٨	دمشق- دار طلاس
٨-	الأزمنة	رواية	١٩٩٢	مصر- دار الهلال
٩-	الموظفون	مجموعة قصصية	١٩٩٢	دمشق – اتحاد الكتاب العرب
١٠-	الجائزة	مجموعة قصصية	١٩٩٤	قايتباي للطباعة والنشر – مصر
١١-	الفلوس	رواية	١٩٩٥	دار ومطابع المستقبل- مصر
١٢-	رجل مختلف	مجموعة قصصية	١٩٩٦	القاهرة – هيئة الكتاب
١٣-	الكيلو ١٠١ الوجه والقناع	رواية	١٩٩٧	الإسكندرية- دار ومطابع المستقبل بالفجالة وبيروت

روايات تحت الطبع

١-	حالة مستعصية	مجموعة قصصية	دار الهلال – القاهرة
٢-	هوى الخمسين	مجموعة قصصية	كتاب اليوم – القاهرة
٣-	الممنوع والمسموح	مجموعة قصصية	مختارات فصول – هيئة الكتاب
٤-	قانون الحب	مجموعة قصصية	دار ومطابع المستقبل
٥-	رحيق الروح	مجموعة قصصية	
٦-	أقاصيص من السويد	مجموعة قصصية	

تعريف بالكاتب"سعيد سالم"

سعيد محمود سالم:

من مواليد الإسكندرية ١٩٤٣ – عضو اتحـاد كتـاب مصر، وعضو اتحاد الكتاب العرب، وعضو هيئـة الفنـون والآداب، وعضو أتيليه الفنانين والكتاب بالإسكندرية، وعضو اللجنة المركزية للنصوص الدرامية بالإذاعـة والتليفزيـون. حاصل على ماجسـتير الهندسـة الكيميائيـة مـن جامعـة الإسكندرية ١٩٦٨- مدير عام التخطيط والمتابعـة بشـركة الورق الأهلية بالإسكندرية

عنوان المنزل:

٥ شارع على باشا ذو الفقار شـقة ١٠ – مصـطفي كامل – الإسكندرية – تليفون: ٥٤٦٢٨٦٩

أعماله الأخرى

* المسرح:

الجبلاية – مسرحية كوميدية ٣ فصول.

الدكتور مخالف – مسرحية كوميدية ٣ فصول.

الدراما الإذاعية:

حجر النار – العائد – سباق الوهم – بوابة مرور – زارع الأمل - رحلة الصعود والهبوط – رجال من بحري.. وجميعها مسلسلات إذاعية شهرية في ٣٠ حلقة بإذاعتي الإسكندرية والقاهرة.

* في النقد الأدبي:

مجموعة مقالات نقدية عن أعمال بعض الكتاب العرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.

أهم الجوائز:

(١) الجائزة الأولى عن روايـة "الأزمنـة" فـي مسابقة إحسان عبد القدوس للرواية ١٩٩٠.

(٢) جائزة الدولة التشجيعية فـي القصـة لعـام ١٩٩٤ عن مجموعة (الموظفون) الصـادرة عام ١٩٩١ عن مطبوعات اتحـاد الكتـاب العرب بدمشق.

***